سهير القلماوي

أحاديث جدتي

الإهداء

« إلى التى لولاها لم أكن شيئاً : إلى أمى . »

مقدمة

للدكتور طه حسين

إن صدق ظنى فسيكون لهذا الكتاب الذى أقدمه إلى القراء شأن أى شأن . فقد قرأته مرتين وما أشك فى أنى سأقرؤه مرة ومرة ، وما أظن أنى سأنصرف عنه وقد أرضيت حاجتى إلى قراءته ، وإنما ستصرفنى عنه كتب أخرى لابد من أن تُقرأ ، وواجبات لابد من أن تؤدَّى ، وهذه الظروف المختلفة التى تحول بينك وبين ما تريد .

ولو أنى حاولت أن أبين الأسباب التى تحبب إلىَّ هذا الكتاب ولا تزهدنى فى قراءته مهما تتكرر ، لما وجدت ذلك سهلا ولا يسيراً . فقد ألتمس هذه الأسباب فى هؤلاء الأشخاص الذين يتحدث إلينا الكتاب عنهم ، والذين يصورون لنا عصرا

من عصورنا القومية نحبه أشد الحب ونجهل من أمره غير قليل . أو نكاد نجهل من أمره كل شيء : وهو هذا العصر الذى سبق الاحتلال الانجليزى واتصل حتى أدرك أوائله .

فى هذا العصر كانت لمصر آمال واسعة وأمانى عراض ، وكانت لها خطوات بعيدة موفقة إلى تحقيق الآمال وإدراك الأمانى ، وكان فيها نشاط تخفق له القلوب بالحياة ، وتمتلىء له النفوس ثقة وعزما ، ثم بينا هى ماضية فى طريقها يدفعها اليقين ، وتبسم لها الأيام ، وتثور من حولها المصاعب مختلفة معقدة ، فلا تثنى لها هما ، ولا تفل لها عزما ؛ إذا سحابة مظلمة قاتمة تسعى إليها من وراء البحر فلا تحفل بها ولا تهتم لها ، بل لا تزيدها هذه السحابة إلا قوة وأيداً ، وإلا نشاطاً وجداً ، وإلا ثقة بالنفس واطمئناناً إلى حسن الحظ .

ولكن السحابة تسعى متثاقلة متباطئة فى جد مع ذلك وتصميم ، وقد قدمت بين يديها نذراً لم تسمع لها مصر ولم تصغ إليها ، وما تزال السحابة فى سعيها تسبقها ظلمات ، وتكتنفها ظلمات ، وتتبعها ظلمات ، حتى تبلغ وادى النيل فتطبق عليه إطباقاً ؛

وإذا هى تحجب عنه الضوء ، وتصد عنه النسيم ، وتضطره إلى حياة فيها البؤس كل البؤس ، وفيها الشقاء كل الشقاء ، وفيها العودة إلى ذل كانت مصر قد برئت منه ، وإلى خمول كانت مصر قد حطت عن نفسها أثقاله ، وإلى يأس كانت مصر قد فرجته عن نفسها تفريجاً ؛ وإذا نفوس تزهق ، ودماء تراق ، وآمال تحطم ، وعزائم تفل ، وقلوب يملؤها القنوط ، ووجوه يغشيها العبوس ، وثغور كانت تبتسم فمحى عنها الابتسام محواً ، وإذا حزن متصل ويأس مقيم ، وإذا أمور مصر ليست إليها ، وإذا هذه الأسباب التى كانت مصر تمدها موفقة إلى مجد جديد تقطع تقطيعاً ، وإذا السلاسل والأغلال تفرض على هذا الشعب الذى كان قد حطم السلاسل والأغلال .

هذا العصر يصوره لنا الأشخاص الذين يتحدث عنهم هذا الكتاب ، فأكثرهم كان يعمل فى الجيش المصرى ، فى هذا الجيش الذى لم يكد يتكون وينشط ويعمل حتى أظهر الأعاجيب ، وأقنع الأمم المعاصرة بأن مصر خليقة أن يحسب لها حساب حين ترضى ، وأن يحسب لها حساب حين تغضب ،

وأن يحسب لها حساب حين تريد .

وكان هؤلاء الأشخاص يستقبلون أعمالهم فى الجيش راضين مغتبطين واثقين ، وكان رضاهم واغتباطهم وثقتهم تشيع من حولهم شعوراً حلواً هادئاً بالأمن والدعة وحسن الرجاء ؛ وكان مايعرض لهم من الخطوب والأهوال يثير من حولهم أحياناً هذا الاضطراب النقى الكريم الذى يملأ قلوب الأمهات والزوجات حين يعلمن أن أبناءهن وأزواجهن يتعرضون للخطوب والأهوال ، ولكن فى سبيل عن الوطن و إقامة مجده الخالد . هذا الاضطراب النقى الكريم الذى يحمل إلى القلوب الحزن والعزاء ، ويحمل إليها اليأس والرجاء ، ويحمل إليها الجزع على من تفقد ، والأمل فى رفعة الوطن وفوزه بالمجد الطريف يضاف إلى المجد التليد .

هؤلاء الأشخاص الذين يتحدث عنهم الكتاب يحببونه إلىَّ و يرغبوننى فيه ، و يحملوننى على أن أقرأ أنباءهم مرة ومرة ، دون أن أشعر بالملل أو أن أحس الفتور .

وقد ألتمس هذه الأسباب عند أشخاص آخرين يتحدث عنهم الكتاب ، لم يكونوا يعملون فى الجيش ولايتعرضون لأهوال

الحرب . وإنما كانوا يعيشون فى المدينة هادئين مطمئنين ، وكانت لهم أخلاق وعادات قد بعد عهدنا بها ، وإن كان قريباً ، لشدة ما أثرت الحضارة الحديثة فى حياتنا ، وقطعت أو كادت تقطع ما بيننا وبين ماضينا القريب جداً من الأسباب والصلات . فنحن نجد لذة حين نقرأ أحاديث هؤلاء الناس ، وحين نرى من عاداتهم وأخلاقهم ما نرى ، وحين نحس ما كان بينهم من هذه المودة الصادقة الساذجة التى لا تفسدها المنافع ولا تغيرها الأهواء ، وحين نلمح هذه العقلية اليسيرة التى كانت تطمح طموحاً قوياً إلى المثل الأعلى ؛ ولكن فى غير تكلف ولا تصنع ولا اعتداد بالنفس ، ولا غرور بما تأتى من الخير ولا امتنان بما تقدم من الجميل ، ولا كفر بما يسدى إليها من النعمة . ونحن نجد لذة حين نسمع هذه الأحاديث التى تصورهم لنا كما رأينا آباءنا وأمهاتنا أو قريباً مما رأينا آباءنا وأمهاتنا حين كنا أطفالاً ، وحين كانت الحضارة الحديثة تتسلل إلى بيوتنا انسلالاً ، وتتسل إلى نفوسنا أيضاً ، وتمد حولنا الحبائل والشباك الخفية الدقيقة ، تأخذنا بها فى المدرسة ، وتأخذنا بها فى البيت ، وتأخذنا بها فى الشارع حين

نمشى ، وتأخذنا بها فى أنديتنا حين نلعب . فنقدر ما بينهم و بيننا من هذه الآماد التى كانت قريبة فبعدت . ومن هذه الصلات التى كانت متينة فوهت وأصابها الضعف . حتى انا لنلقى من بقى منهم فنتحدث إليه فلا يكاد يفهم عنا ، ونسمع له فلا نكاد نفهم عنه . و إذا نحن محتاجون إلى أن نتكلف السذاجة والتبسط لنصل إلى قلبه وعقله ، و إذا هو محتاج إلى أن يتكلف ما لا يطيق من التعقيد ليبلغ قلوبنا وعقولنا . و إذا نحن إلى قلوب الأجانب من الأوروبيين وعقولهم أدنى منا إلى قلوب الشيوخ من المصريين وعقولهم . و إذا نحن نتحدث إليهم العربية ، ولكننا فى حاجة إلى الترجمان ، على حين نتحدث إلى الأجانب لغتهم الأجنبية أو لغتنا العربية فنفهم عنهم ويفهمون عنا فى غير جهد ولا عناء .

نعم وقد ألتمس هذه الأسباب فيما يصوره لنا هذا الكتاب من إقدام النفس المصرية على حياتنا الجديدة هذه فى شىء من الحذر والاحتياط ، وفى شىء من الشك والريبة . وفى كثير من التمنع والمقاومة . فنقارن بين اندفاعنا نحن إلى هذه الحياة الجديدة فى غير اناة ولا روية ، وفى غير مهل ولا تفكير ، و بين إقبال

آبائنا عليها متحفظين مستانين . لا يأخذون بحظهم منه إلا بعد تبصر وتدبر ، وإلا بعد تنخل واختيار . كأنهم كانوا يعلمون حق العلم أن الانتقال من طور إلى طور ، والملاءمة بين حضارة وحضارة ، والتقريب بين حياة وحياة . كل ذلك ليس من الأشياء التى تستطيع أن تتم دون أن يسيطر عليها العقل ، وينظمها حسن التدبير والتفكير ، وأن شخصية الأفراد والجماعات أعز على الأفراد والجماعات وألصق بنفوسهم وأثبت فيها من أن تفنيها الرغبة فى التجديد ، وإنما هى شىء يستطيع أن يرقى دون أن يفنى ، وأن يتطور ويتجدد دون أن يموت أو يبتذل ابتذالاً .

نعم وقد ألتمس هذه الأسباب التى تحبب إلىّ الكتاب فى هذه السذاجة الحلوة ، التى تبدأ مع الجملة الأولى من جمل الكتاب ، ولا تزال تترقرق فيه كما يترقرق الماء فى الأغصان الخضرة النضرة فتبعث فى النفس حياة قوية ، وحنيناً ليس أقل منها قوة ، وتملأ العقل اقتناعاً بأن حياتنا المصرية القريبة ليست من الجفاء والجفوة ، وليست من الخشونة والغلظة ، وليست من الذواء والذبول بحيث يظن الشباب المتهالكون على كل جديد ، الذين تفتنهم مظاهر

الحضارة الحديثة ، وتخلب عقولهم وألبابهم . فاذا هم يندفعون إلى أمام لا ينظرون إلى وراء . و إذا هم يمضون ولا يقفون من حين إلى حين . و إذا هم يقتحمون بحراً لجياً ، وقد قطعوا ما كان يصل بينهم و بين الساحل من أسباب ، و إذا هم لا يدرون متى يصلون ولا يعرفون كيف يرجعون .

وقد ألتمس هذه الأسباب التى تحبب إلىّ الكتاب فى هذه العبارة السهلة اليسيرة التى برئت من كل تكلف ، وارتفعت عن كل تصنع ، وتحدثت إلى النفس المصرية و إلى القلب المصرى بلغة النفس المصرية والقلب المصرى ، لم تستعر ألفاظها ولا أساليبها من القدماء الذين بعد بينهم و بيننا العهد ، ولم تتكلف محاكاة الأورو بيين الذين لم يتم بيننا و بينهم الامتزاج ؛ و إنما هى مصرية خالصة بل قاهرية خالصة ، لا تكره أن تشذ أحياناً بعض الشذوذ عما ألفته الفصاحة المدرسية والبلاغة التعليمية من التزام بعض الأوضاع والأشكال فى إدارة الجمل ، و إقامة بناء الكلام بعضه على بعض . ذلك لأن الكتاب مشتق من حياة الأسرة المصرية القاهرية اشتقاقاً ، فهو قطعة منها ، وهو يصورها

فى معانيه كما يصورها فى ألفاظه وكما يصورها فى أساليبه . فأنت لا تكاد تأخذ فى قراءته حتى يخيل إليك أنك لا تقرأ . وإنما أنت تسمع وترى ، وأنت تظن أول الأمر أنك تسمع هذه الفتاة ، وتراها تتلطف لجدتها وتدور حولها تلتمس منها القصة والحديث ، وأنك ترى هذه الجدة مستجيبة للفتاة فى حب وحنان ، متحدثة إليها فى صدق وصراحة وإخلاص ؛ ولكن الحديث لا يلبث أن يأخذك ، وإذا أنت تنسى الجدة والفتاة ، وترى هؤلاء الأشخاص الذين يدور الحديث عليهم بين الجدة والفتاة يسعون ويعملون وتسمعهم يجدون ويهزلون . وإذا أنت واحد منهم ، وإذا أنت تشاركهم فى حياتهم وتشاطرهم آلامهم ولذاتهم . كل ذلك دون أن تبذل جهداً أو تتحمل مشقة أو تتكلف عناء ، لأن الكتاب قد أفرغ فى هذا اللفظ المصرى الحلو الذى نصطنعه حين يتحدث بعضنا إلى بعض ، فلا نجد فى اصطناعه ولا فى فهمه إعياء ولا عسراً .

قف عند قصة عائشة هذه التى تلقاك متى بدأت قراءة الكتاب ، فسترى أول الأمر مطراً ينهمر ، ورعداً يخفق فى

أجواز الجو ، وستسمع ريحاً تعصف ، ورعداً يقصف : وسترى فتاة معجبة بهذا كله تنظر إليه وتستمتع به . وتكاد أن تتلقاه : وجدة مشفقة عليها تحذرها وتدعوها وتغريها بالقصة والحديث . ثم استمع للجدة وقد أقبلت عليها الفتاة فهى تحدثها حديثاً فيه جمال الذكرى وحنينها وألمها ، فقد أثارت هذه العاصفة فى نفسها صورة عاصفة أخرى عصفت بالقاهرة منذ أعوام وأعوام ، ولكنها انتهت إلى حزن يا له من حزن : وأنت لا تكاد تمضى فى هذا الحديث حتى تنسى العاصفة التى يضطرب بها الجو الآن ، والتى اضطرب بها الجو منذ أعوام وأعوام ، لأن الحديث قد أثار لك شخصاً غريباً فى أول الأمر ولكنه مؤثر محزن مثير للعطف مثير للرثاء بعد قليل : هو شخص عائشة هذه التى كانت ساذجة يسيرة العقل ، حلوة النفس ، صادقة الحب ، تضحك صديقاتها بسذاجتها ، وتضحك هى من هذه السذاجة ، تتعثر فى غير عقبة ، وتضطرب لما لا يدعو إلى الاضطراب . ثم يستبين لها الأمر فكأنما يرفع عنها الغطاء . وإذا هى دهشة لتعثرها ، معجبة باضطرابها ، منكرة لهذا القصور الذى أضحك منها الصديقات وأضحكها من نفسها ،

وإذا هى مضحكة حين يستبين هذا الأمر ، كما كانت مضحكة حين يختلط عليها الأمر . وانظر إلى هؤلاء الصديقات من حولها يداعبنها ويلاعبنها ويمكرن بها ويضحكن منها ويحببنها مع ذلك ، بل يحببنها لذلك حباً كله صدق وإخلاص . وكل هؤلاء النساء من هذه الطبقة الوسطى التى لا ترقى بها الثروة إلى أن تكون من الارستقراطية الحاكمة ، ولا يهبط بها الفقر إلى أن تكون من الرعية المحكومة ؛ وإنما هى طبقة بين هذا وذاك ، تستمتع بسعة فى الحياة ولكنها سعة محدودة ، هى هذه الطبقة التى أخذت تظهر وترقى شيئاً فشيئاً منذ بدأ تاريخنا الحديث ، وأخذنا نكوّن الجيش وننظم الدواوين ، وتهيىء أبناء الشعب للعمل فى الجيش وفى الدواوين فتتغير أحوالهم قليلا قليلا ، يرقون إلى الترك الحاكمين بعض الشىء ويهبط إليهم الترك بعض الشىء ، ثم يلتقون ثم يمتزجون . ثم يفنى العنصر التركى فى العنصر المصرى قليلا قليلا ، ثم تتكون هذه الطبقة التى تختصر النشاط المصرى فى السياسة والادارة والحرب والقضاء والتعليم منذ انتصف القرن الماضى . هؤلاء الصديقات من هذه الطبقة هن مصريات قد

تزوجن الأتراك أو هن أتراك قد تزوجن المصريين ، ففيهن تلتقى النفس التركية والنفس المصرية ، وفيهن تمثل العقلية الشرقية ، وقد أخذت تتفتح فى استحياء لما تحمله إلينا الحضارة الغربية من ألوان التجديد .

انظر إليهن وقد اجتمعن فى الضحى عند الجدة ، وهن يتحدثن ويضحكن ويتندرن بعائشة ، ويتفكهن بما حفظن لها من الأحاديث ، وهن ينتظرنها ، وقد دبرت لها أختها كيداً ، فهن يتساءلن كيف تخلص من هذا الكيد . ثم انظر إليها ، وقد أقبلت حائرة ثائرة فهن يضحكن من حيرتها وثورتها . ثم يستبين لها ما كان قد خفى عليها ، فاذا هى تشاركهن فى ضحك متصل ، ينقضى النهار دون أن ينقضى . ولكن أسمعت الجدة ؟ أرأيتها ؟ إنها قد رأت فيما يرى النائم شيئاً أزعجها وملأ قلبها رعباً وخوفاً ، وهى تصدق الأحلام وتشفق من تعبيرها ، وهى تقص حلمها على صديقاتها قبل مقدم عائشة ، لأن الحلم يتصل بعائشة وهى تلجأ إلى الضحك وتنغمس فيه تدافع به طائف الليل ، هذا الذى ملأ قلبها إشفاقا وفرقا ، ولكن الطائف يتراءى لها من حين إلى حين

فينغص عليها هذا الصفاء الذى كانت تود لو يخلص من كل شائبة ؛ وقد انقضى النهار وأقبل الليل ، ونشر على المدينة ظلمته وهدوءه ، ولم يكن فى المدينة سيارات ، ولم تكن أسباب الانتقال فيها يسيرة ولا منظمة ، والصديقات مبتهجات بتقدم الليل وانتشار ظلمته ، وتعسر الأوبة عليهن ، وهذه العاصفة تثور ، وهـذه السحب المتراكمة قد أقبلت يسبقها البرق ويحدوها الرعد ، وهى تصب ماءها على المدينة صبا ، فليس للصديقات بد من أن ينفقن ليلة سعيدة مجتمعات ، قد فرض المطر عليهن هذا الاجتماع ، سيبتن الليلة إذن عند صاحبتهن ، وسيسمرن ماوسعهن السمر ؛ وها هن أولاء قد أوين إلى مضاجعهن ينفقن فيها ما بقى من الليل ، ولـكن عائشة لا تريد أن تستقبل النوم دون أن تؤدى صلاتها فقد كان النساء فى ذلك الوقت يصلين ويحرصن على الصـلاة ، ولـكن ما بال عائشة مضطربة لا تستقبل الصـلاة إلا انصرفت عنها لتستقبلها من جديد ثم تنصرف عنها ؛ اسمع لها وهى تتحدث إلى صديقتها الجدة شاكية مشفقة أن الشيطان يقوم بينها وبين القبلة كلما استقبلت الصلاة ليصرفها عنها ، مخوفاً لها ساخراً منها ،

ملحاً فى تخويفه وفى سخريته . إن الأيام لتضمر لعائشة شراً ، وإن الجدة لتنتظر هذا الشر وتكاد تتبينه ، ولكنها تكتم حلمها عن عائشة وتخفيه عليها ، فلتكتمه إن شاءت ، ولتخفه إن أحبت ، فالأيام كفيلة بأن تعلن الخفى وتظهر المكتوم ، وهى تبطىء فى ذلك أحياناً ؛ أما الآن فهى مسرعة لاتحب الابطاء . تسمع أن الباب يطرق ، من عسى أن يكون الطارق ؟ فقد تقدم الليل والعاصفة ثائرة ، والمطر ينهمر انهماراً . هو رسول الأيام الذى أقبل ينبىء عائشة بأن ابنها قد مات فى بعض الأقاليم . لقد تم تأويل الرؤيا ولقد تبين مكر الشيطان ! ولقد قطعت الأسباب بين عائشة و بين الضحك ، ووصلت أسباب أخرى بينها و بين الحزن . فانظر إليها بعد ذلك ساذجة فى حزنها كما كانت ساذجة فى ابتهاجها ، ولكنه حزن لا يمر بك دون أن يملأ نفسك لوعة وأسى ، لأنه حزن ساذج لا تكلف فيه ، انظر إلى عائشة الحزينة . وقد آوت إلى مضجعها وأخذ النوم يدنو منها ، و إذا ابنها الفقيد يتراءى لها ، و إذا هى تقرأ له الفاتحة ولا تكاد تأخذ فى ذلك حتى تستبق إليها أشباح من الموتى لا تكاد تحصى ، وكلها يطلب إليها أن تقرأ له

الفاتحة ، كما قرأتها لابنها ، وهى تهدئ الأشباح وتعدها . ثم تنفق ليلها فى قراءة الفاتحة للموتى !

أين تكون السذاجة المؤثرة المصورة للنفس المصرية فى آخر القرن الماضى إذا لم تكن فى هذا الحديث وفى الأحاديث الأخرى ، التى قصتها علينا « سهير » فى هذا الكتاب .

لقد كنت أريد أن ألم بهذه الأحاديث الأخرى ، فهى ليست أقل روعة ولا جمالاً ولا تأثيراً من حديث عائشة ، ولكن أخشى أن أطيل وأن تبلغ المقدمة قدر الكتاب ، وما أظن أن الناس يأخذون هذا الكتاب ليقرءونى أنا ، وإنما هم يأخذونه ليقرءوا « سهير » ، فلسهير قراؤها والمعجبون بها على قرب عهدها بالتحدث إلى الناس ، وأنا أحد هؤلاء القراء وأحد هؤلاء المعجبين . ومن يدرى ؟ لعل إعجابى بسهير الكاتبة ، ورضاى عن سهير الطالبة من الأسباب التى تحبب إلىّ هذا الكتاب . ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن هذا الاعجاب وهذا الرضى هما اللذان يمنعانى من أن أثنى على « سهير » بأكثر مما ينبغى لها من ثناء الأستاذ الذى لم يتعود منه طلابه إسرافاً فى الثناء .

طه حسين

١

عصفت الريح عاتية فى ليلة من ليالى الشتاء ، وأرعدت السحب وأبرقت ، ونزل المطر كأنما فتحت ينابيع السماء . وانزوى كل فى ركن داره يتلمس الدفء من برد قارس ، والهدوء من اضطراب عصبي ، لا يرى له مصدراً إلا تفاعل الانسان مع الطبيعة حوله . وجلست جدتى قرب موقدها . وقد أشعلت لفافة تبغ تبغى الهدوء والدفء .

ولكنى لم أستطع الهدوء فى مثل تلك الساعة ، ففتحتُ الباب وخرجتُ إلى الشرفة أنظر البرق وأرى المطر وأستنشق الهواء المغسول ، فأحس لكل هذا لذة غريبة . وصاحت بى جدتى بعد برهة تنصح لى أن أدخل

لأن البرد قارس لا يحتمل ، فلا داعى للتعرض له لمجرد منظر البرق أو المطر أو لاستنشاق الهواء .

وجدتى تعلم أن ليس يغرينى بطاعتها مثل وعدٍ بقصة جديدة أو بحديث عن ماضيها ، فأسرعَتْ ترغبنى فى الدخول ، قائلة إنها ستقص علىّ ما كان فى ليلة مثل هذه منذ أربعين عاماً أو تزيد .

— كنا يا ابنتى نحن أهل الزمن الأول لا نعرف الكلفة ولا نتصنّعها . فاذا أحببنا أحببنا باخلاص وعاشرنا باخلاص ، لا نتكلف شيئاً بيننا وبين من نحب ونعاشر . لم نكن كأهل هذا الزمن نتكلف فى كل شئ . كنا لا نعرف هذه المدنية الجديدة التى تضطر المرء إلى أن يصانع ويدارى ، وأن يلاطف ويترضى وأن يتكلف ويتصنع ....

وابتسمتُ ، وعرفَتْ جدتى سر ابتسامتى ، فلطالما تناقشنا حول هذا الموضوع : هى تزعم ما قالت وأنا أدافع

عن أهل هذا الزمن دفاع من يرتبط به . وكان أشد مايدفعنى فى هذا النقاش أنى لست أحب تحسراً على ماض ولا تمنياً لرجعته . فلولا سلطان الزمن ، ولولا هذا السحر الذى يسبغه على الماضى ما تحسر ربع هؤلاء المتحسرين ولا تمنى أقل منهم رجعته .

وكانت جدتى مأخوذة بسحر هذا الماضى الذى أحبته يوم كان حاضراً ، وعاشت على ذكرياته بعد أن أصبح ماضياً ؛ فلم تعر ابتسامتى اكتراثاً ، ومضت فى حديثها :

— وكانت أحب صديقاتى إلىَّ صديقتى عائشة ، كانت يا ابنتى سليمة النية ، طيبة القلب ، سمحة الطبع ، محببة العشرة ؛ كان قلبها أحسن ما فيها ، إن لم يكن هو كل ما كان فيها . أما عقلها فقد كان قاصراً بعض القصور ، يعوقها عن الفهم أحياناً ، وعن الحكم على الأمور غالباً ، وكنا — وخاصة أختها — نستغل فيها هذا الضعف لنضحك

منها ، لافى سخرية كما يفعل أهل اليوم ، وإنما كنا نضحك لنضحكها معنا آخر الأمر ، لا نريد بذلك إلا تمضية الوقت على أحسن ما نستطيع . فاذا ما مر الفصل الذى دبرناه لها ، وفرغنا من الضحك منه بعد أن أشركناها معنا كانت هى التى تذكّرنا به لنضحك منه مرات أخرى ، وكانت هى التى تلوم نفسها وتقول : ما أشد غفلتى ، كيف لم أفهم !

— جاءتنى يوماً زائرة ، ولكنها لعذر لم تستطع أن تمكث عندى كما كنا نحب ، فوعدَتْ أن تأتينى فى الغد . فلما كان الغد دخلت علىّ أختُها وهى لا تتمالك نفسها من شدة الضحك . قلتُ لها : ما بك وأين عائشة ؟ .. وكان سؤالى عن عائشة فى لهفة شديدة . ذلك انى يا ابنتى رأيت رؤيا فى تلك الليلة أفزعتنى . وأنت تعلمين بالتجربة ما لأحلامى من أثر فى حقيقة حياتى ، فلما لم تأت عائشة خفت عليها لأن ابنها مريض منذ أيام فى الريف حيث

يعمل . ورغم ضحك أختها لم أستطع طرد أفكارى السود ، لكنها قطعت علىَّ أفكارى بقولها :

« سبقتها إليك ، ولقد دبرْتُ لها فصلا مضحكا للغاية ، هى لا تلبس إلا البرقع الأسود كما تعلمين ، وأنا لا ألبس إلاَّ الأبيض ، ولكنى اليوم أردت أن نضحك منها ، فأخذت برقعها الأسود ولبسته أنا ، وتركت لها البرقع الأبيض . وأؤكد لك أنها لن تعرف كيف تلبسه ، وستظل فى حيرتها هذه طويلاً ، ولست أعرف على أى شكل ستحل مشكلتها ، ولكنها ولا شك ستضحكنا من حلها » .

—ومكثنا ننتظر عائشة من الصباح إلى قرب الظهر . وكنت لا أزال يا ابنتى أصارع الأفكار فلا أقوى على صرعها . ولاحظت صديقاتى كآبةً كنت أخفيها حتى لا أعكر عليهن صفو اليوم ، فقلن لى : مالك ، وما بك ؟ قلت : إن رؤيا رأيتها مفزعة أليمة لم أستطع التخلص من

سلطانها وسلطان جوها إلى الآن . قلن : اللهم اجعله خيراً ، وما رؤياك ؟ قلت : رؤيا مضطربة لا أذكر منها إلا قليلاً ، فكأنا فى منزلى هذا ، ولكن فى غرفة غريبة عنى كل الغرابة ، وإذا بعائشة لابسة لباساً أبيض من رأسها إلى قدميها ، وقد وضعت يدها على خدها ، ووجهها أصفر كالشمع ، وعيناها غائرتان من الألم ، وإذا بأمى تلتفت إلىَّ وتقول : « مسكينه عائشة ، ضرسها وقع » ثم لم أر بعدها ولم أسمع شيئاً .

— وجمت صديقاتى ، وكأن جو الرؤيا قد مسهن ، فكل حديث عن الرؤَى له سحر عجيب يقف السامع أمامه واجما . ولكن وجومنا لم يظل ، إذ دخلت علينا عائشة ، وقد وضعت البرقع على فمها وأنفها وأمسكته بيدها طول الطريق ، وهى محتدة صاخبة قائلة لأختها :

« الله يجزيك ، أخذتِ برقعى وتركت لى هذا ، لم أعرف كيف ألبسه ، وأخذت أحاول ذلك بشتى الطرق ،

فتارة أشبكه وأخرى أعقله ، وأخيراً لم أجد حلا إلا أنى أمسكه هكذا طول الطريق ، وقد ضاقت أنفاسى وآلمتنى يدى .

— وكان منظرها يبعث على الضحك ، فلم نستطع سماع كلامها إلا بصعوبة من شدة الضحك . وزاد فى ضحكنا شعور خفى بأنا تخلصنا من جو مكروه هو جو الرؤيا التى كنت أقصها . ولكنى يا ابنتى ظللت طول يومى تحت تأثير رؤياى ، ولم يمح منظر عائشة ببرقعها الأبيض منظرها وهى فى لباسها الأبيض ، كما رأيتها فى المنام .

— وكانت يا ابنتى كلما ازدادت غيظاً زدنا ضحكاً ، وأخيراً أريناها كيف تلبسه ، فضحكت معنا ، وأمضينا اليوم فى ضحك ، تتصور منظرها وهى داخلة علينا فنضحك ملء أفواهنا . وتذكر هى معنا منظرها وحيرتها وماقاسته وكيف كان الأمر أبسط مما قدرت ، فتشاركنا ضحكنا بقلب طاهر ونفس نقية .

— وما وافى الغروب يا ابنتى حتى اكفهر الجو فجأة ، ثم أرعدت السماء وأمطرت . كان المطر ينزل من السماء وكأن بها سقاة يفرغون قربهم على الأرض . كانت ليلة ويا لها من ليلة ، كانت كهذه تماماً ، لا زلت أذكرها وأذكر حوادثها كأنها تمر الآن أمامى جزءاً جزءاً .

واغرورقت عينا جدتى من ألم الذكرى ، فتألمتُ معها وإن لم أعرف سر ألمها . لقد كانت عواطفها تنتقل إلىَّ فى يسر عجيب ، كأن أعصابنا مجموعة أسلاك كهربائية واحدة تسيطر عليها احدانا ، لا فرق بين أن تكون هى المسيطرة أو أنا . وظللت مأخوذة بحديثها وشعورها ، فلم أنطق حرفاً وإن كنت حاولت جهدى .

ولاحظَتْ جدتى ألمى واضطرابى ومحاولتى ، فقربت رأسى من صدرها وأسندته إليه بيدها فى حنان وعطف . ثم أمسكت ذقنى ورفعت رأسى حتى تلاقت عيوننا من خلل دمعى ودمعها . ثم قالت بصوت خافت حزين :

— يكفيك الله يا ابنتى شرَّ ما لاقته عائشة منذ تلك الليلة إلى آخر لياليها .

* * *

— كانت الليلة يا ابنتى كهذه حالكة أشد الحلوكة ، والطقس مكفهر ، والمطر غزير ، والرعد عال مخيف . وتعذر على صديقاتى ليلتها الرجوع إلى منازلهن ، فقررن المبيت عندى ، وفرحنا كلنا لهذا القرار . لم تكن هذه أول ليلة بتنها عندى ، وإنما كانت واحدة من كثيرات قبلها وكثيرات بعدها . كنا يا ابنتى ثلاث أسر أو أربعاً تتصادق نساؤها ويتصادق رجالها صداقة متينة مخلصة ، فكنا كلنا كأسرة واحدة نعيش كأخوات وإخوة . ولم يكن المبيت عند إحدى الصديقات إلا شيئاً عادياً تنتحل له أتفه الأعذار ، حتى يطول اجتماعنا فيطول سمرنا وسرورنا .

— وأخذنا فى السمر والضحك إلى ساعة متأخرة من

الليل . وكانت أخت عائشة كلما أحست سكوتاً أو شبه سكوت ، التفتت إلى أختها تغيظها بأشياء وأقوال لا تمالك إثرها من الضحك . لأنها لم تكن تستحق كل هذا الغيظ أو الجد الذى يستولى على عائشة منها . فمثلاً تقول لها أختها :

« أتدرين ياعائشة يا أختى أن الذى خلقنى خلق الملك والوزير ، والذى خلقك خلق الكلب والخنزير ؟ »

فتحتد عائشة وتغتاظ وتصيح بها :

« حرام عليك . اسكتى يا كافرة ! استغفر الله استغفر الله . إنت يا بنت ! عقلك حصل فيه خلل ! »

فكنا لا نمل الضحك من هذا الكلام مهما تكرر .

— وتقدم بنا الليل ، فقمنا كل منا تتلمس فراشها ، وقامت عائشة تصلى صلاة العشاء ، لأنها تعودت أن تصليها قبل نومها مباشرة . ولكنها جاءتنى ، وكان فراشها جنب فراشى ، وقالت لى فى لهجة خوف ورهبة ، وقد اصفر وجهها :

« غريبة جداً يا أختى كلما بدأت الصلاة اليوم أرى الشيطان أمامى ، وقد لبس طرطوراً أحمر ، وهو فاغر فاه ، يضحك ضحكة كأنه يستهزئ بى وبصلاتى . وأحِسُّ لوقفته هذه سلطاناً عجيباً علىّ . فأكرر وأكرر : اللهم أخز الشيطان ، اللهم أخز الشيطان ، فتتلاشى صورته ، لكن ما تلبث أن تعود ! وهكذا أظل أحاول الصلاة عبثاً إلى أن أمل فأتمها على عجل وفى خوف ، ولكنى الآن لا أستطيع الصلاة بحال » .

قلت لها : خيالات تتراءى لك لضعف أعصابك ، أليس لك الآن أكثر من أسبوع وأنت مشغولة البال ، مهمومة لمرض محمد ابنك ؟.. وكدت أقص عليها رؤياى لولا أن ارتفعت عيناى إلى وجهها الأصفر من الخوف ، فأشفقت عليها وسكت . وكأنما كانت تطارد أشباحاً تراءت لها ، فقالت لى :

« كلا ، إن محمداً اليوم أحسن حالاً كما قال لى أبوه .

ولكنى لست أدرى ما الذى يخيفنى عليه . كلما فكرت فيه أحسست انقباضاً لا أعرف له سبباً ، كأنما حجر ثقيل يضغط على قلبى ، فأكاد أئن من ألم الضغط . وعبثاً أحاول أن أطمئن نفسى بالواقع ، وعبثاً أكرر كلمات والده . . . ثم هذا الشيطان ماذا أفعل به ؟ . . »

— وقالت جملتها الأخيرة بلهجتها الساذجة ، ونغمتها التى تصاحبها وقت الحيرة المضحكة ، وكدت أضحك لولا هذا الجو الذى كان يحيط بنا ، ولولا تلك الصفرة التى تعلو وجه عائشة ، والخوف الذى يتملكها .

— وأقنعتها أخيراً بأن تترك الصلاة إلى الغد ، فكانت تحاورنى قائلة : ولكنى لم أؤجل فرضاً باختيارى منذ بدأت الصلاة شابة إلى اليوم .

— نامت عائشة أو تناومت ، ونمت جانبها أو تمددت ، وظلت عيناى مفتوحتين متجهتين نحو عائشة فى فراشها أمامى . كنت لا أتبينها جيداً رغم حدة بصرى فى

الظلام ، وكنت أخاف أن آتى بأى حركة لا تبينها حتى لا تزعج ، فقد كانت المسكينة متوترة الأعصاب ، وجلة القلب مضطربة .

— كنت قد نسيت المطر والزوبعة يا ابنتى رغم شدتها وعتوها ، ولكن الآن وقد هدأت كل حركة عادت أعصابى إلى شىء من طبيعتها ، فأنصتُّ إلى المطر ، وكان ما زال يهمى ، وإلى الريح وكانت تعصف هائجة ثائرة . كنت أتخيل السحب فلا أرى من بينها إلا عائشة بلباسها الأبيض ووجهها الشمعى ويدها على ضرسها . عائشة كما رأيتها فى الرؤيا . ومن بين أصوات الرياح والمطر والرعد رن صوت أمى ثانية حزيناً هادئاً متألماً : « مسكينة عائشة ضرسها وقع » .

— وطرق باب الدار طارق ، فصحوت على صوته فزعة قلقة ، وفتحت النافذة أرقبه منها وأتسمع مايقول ؛ قام اليه البواب ، واتخذَتْ رسالته مجراها الطبيعى حتى

تصل إلىَّ ، ولكنى كنت قد سمعتها من نفس الطارق ، ووقفت لها واجمة لا أستطيع حراكاً . ترى ماذا وراءها ، وإلى أين ستنتهى بنا هذه الليلة الليلاء ؟

— ورن صوت عائشة بجانبى خائفاً وجلاً كالطفل أتى أمراً منكراً وهو يعترف بذنبه مستحيياً نادماً : « ماذا يا أختى ، ما الخبر ؟ »

— وحاولت ما استطعت أن أتكلم بصوت عادى ، ولهجة لا يُستشف منها اضطراب أو خوف ، فقلت : « إن زوجك يريدك حالاً » ، ولو كنت يا ابنتى قلت لها إن عزرائيل جاء يطلب روحك لما اضطربت أكثر مما اضطربت . قامت المسكينة ثائرة خائفة تكرر وتكزر : « قلبي قال لى ، يا ساتر يا رب ، قلبي شاعر من الصبح ؛ يا رب يا رحيم » .

— وهرولَتِ المسكينة وهرولتُ وراءها ، وما وصلنا دارها حتى صدمنا الواقع صدمة كادت تجن لها .

لقد مات محمد، ولم يؤخر المقدورَ خوف منه أو ترقب له.
أخذت المسكينة تشد شعرها وتلطم وجهها وتصيح. ثم تعود إلى شيء من الهدوء، إلى شيء من الاستسلام اليائس الحزين، وتكرر بصوت مسموع كأنما تحاول أن تقنع نفسها فلا تقتنع: «قضاؤك اللهم، وليس لقضائك مرد. إنا لله وإنا إليه راجعون».

— تغيرت حال عائشة تغيراً تاماً منذ تلك الليلة. وأصبحتْ يا ابنتى كثيرة الحيرة كثيرة الوجوم، لا من فصول دبرناها لها، وإنما من فصول دبرها لها القدر، وكان أغلظ منا قلباً وأقسى طبعاً.

— كانت يا ابنتى كلما دخلت مأتماً تعزى أهله فى فقيد تنصح لهن ألا يستسلمن للحزن وتقول لهن:

«لا. الحزن كفر. حزنت على ابنى الوحيد محمد، وكان الشيطان لا يدعنى مرة، كلما صليت يأتى إلىَّ بطرطوره الأحمر وضحكته الساخرة، ويقف أمامى على

سجاد الصلاة ، ويظل يقول لى : « محمد كان جميلاً . محمد كان ابنك . كان حنوناً . محمد لم يكن لك غيره . كان له مستقبل باسم . ولكنه مات . مات . ربنا أخذه منك . محمد مات » حتى أترك الصلاة ، ولكم تراكم علىَّ من فروض لم أؤدها إلى اليوم .

« إياكن والحزن . إنى لم أعرف صلاة مطمئنة منذ مات محمد ، ولم أعرف نوماً هادئاً منذ روحته ؛ كلما حاولت النوم يأتينى محمد يطلب إلىَّ أن أقرأ الفاتحة على روحه ، فما أكاد أتمها حتى يهجم علىَّ جيش من أموات الأهل والمعارف كلهم يصيحون : « والنبى الفاتحة لى ، والنبى الفاتحة لى » فأقول لهم : « واحداً واحداً ، انتظروا قليلاً » ولكنهم يتزاحمون ، فأقرأ لهذا ثم لذاك ، فلا أفرغ حتى الصباح .

إياكن والحزن فهو كفر . . . »

— وهكذا كانت عائشة تستمر فى لهجتها الساذجة

الحزينة تقص على أهل الميت ما تلاقيه من حزن ، وكانت السامعات يتوهمن أن بها مسًّا ، وأن عقلها اختل فما تكاد تقوم حتى يتهامسن :

« مسكينة عائشة ، عقلها ضاع » .

— ولكن لسوء حظ عائشة عقلها لم يضع .

* * *

ودوّى الرعد ، وهمى المطر ، وعصفت الريح ؛ فكررت جدتى :

— كانت يا ابنتى ليلة كهذه يوم مات محمد ، فاقرئى معى الفاتحة على روحه وعلى روح أمه عائشة .

وما كدنا نتم الفاتحة حتى تلاقت عيناى بعينَىْ جدتى فاذا هما مغرورقتان والدمع يتساقط منهما فى هدوء وجلال . وأسندت جدتى رأسى إلى صدرها وكررت ثانية :

— يكفيك الله يا ابنتى شر مالاقته عائشة .

٢

بين الطفولة والشيخوخة جاذبية غريبة وتشابه عجيب . كلاهما قريب من هذا العالم المجهول الذى جئنا منه وسنعود إليه . وكلاهما قليل التقدير للحياة ، يكاد لا يحفل بها هذا عن جهل بها ، وذاك عن علم وتجربة ، هذا يبسم للحياة ابتسام الطرب والأمل والفرح ، وذاك يبسم لها ابتسام السخر واليأس والألم .

وكثيراً ما نرى فى خلق الشيخ ما يقربه من الطفولة ، كأنما الحلقة قد تمت وعادت إلى مبدئها من جديد ، وكثيراً ما يتصادق الشيخ والطفل صداقة حلوة طاهرة عميقة لاذة فيما تكلف أصحابها من شعور وإحساس . فاذا كانت هذه الصداقة تقويها رابطة أوثق كرابطة

النسب أو القرابة كانت أعمق وأدوم . . . .

كنت أفكر فى هـذا وأنا جالسة إلى مكتبى أقرأ درسى . وكانت جدتى شغلى الشاغل منـذ عدت من المدرسة . فقد عدت لأجـدها نائمة تشكو شيئاً من الصداع . تعودت أن أرى جدتى دائمـا بعد عودتى من المدرسة لأقبلها قبلة كانت اشتياقاً لها أول عهدى بالمدرسة وبفراق جدتى، ثم أصبحَتْ بعد أن صار لى صاحبات آنس إليهن وإلى لعبهن عادة اعتدتها لا أرى لها سبباً، ولـكنى إن تركتها يوماً شعرت لتركها بشىء ولو قليل من الضيق .

دق الجرس ، فأسرعت إلى جدتى أسألها ما تريد ، فسألتنى وقد ظنتنى خادمها : هل عادت البنت من المدرسة ؟ فأسرعْتُ نحوها أقبلها كعادتى .

وأضاءت جدتى النور لتعرف الوقت من ساعتها السحرية المعلقة على الحائط . كم كنت أحب هذه الساعة

لصغيرة ، وكم تقت إلى لمسها وإلى اللعب بها ، فكانت جدتى تنهانى . وها أنا هذه اليوم أديرها بيدى ، ولكنى ما زلت أحس أن لها شيئاً من السحر ، وما زلت أُكِنُّ لها غير قليل من شعور يحسه الانسان نحو الأشياء التى يألفها طفلاً فتذكّره دوماً بأيام الطفولة المرحة العذبة الذكريات .

قالت جـــدتى ، وقد رأتنى أنظر إلى الساعة : ألا تنامين ، إنها الثامنة ليلاً ؟ قلت : نعم ، بعد أن تقصى علىّ قصة أو حديثاً عن ماضيك . قالت : استعدى لنومك ، وتعالَىْ ريثما أتذكر لك حديثاً يعجبك ، فقد كبرت الآن وأصبحت أحاديثى لك طفلة لا يلذ لك الآن إلا أقلها .

فى ظلمـةِ غرفةِ جدتى — وقد جلستُ جانبها على السرير — أخذت جدتى تقول :

— كنا يا ابنتى من زمن بعيد فى رشيد . كان جدك رحمه الله قد نقل مع جزء من الجيش ليعمل هنـاك فى

حصونها . وكان منزلنا هنـاك معروفاً لمكانة المرحوم زوجى . وكان أعيان رشيد — وقد أصبحوا أصدقاء جدك بعد أن أقمنا زمناً — يزورونه كثيراً ويزورهم ، ويجتمع بهم فى منزل أحدهم كلما استطاعوا أن يجتمعوا . كان بين هؤلاء رجل ثرى يملك منزلاً فخماً ، وحديقة واسعة مليئة بالفواكه والخضروات . فى هذه الحديقة كثيراً ما ذهب أولادى ليلعبوا مع أبناء صاحب الدار .

— وكان ولدى اسماعيل أكثر أولادى حبا للعب . ولكنه كان ميالاً إلى الإئتلاف فى لعبه ، ولكم نهيته ، ولكم حاولت معه باللين حيناً وبالشدة كثيراً ، فلم أفلح معه فى كثير أو قليل . وظل طول عمره أكثر أولادى كلفاً باللعب وباغاظتى ، وظللت أعامله دون اخوته جميعاً بالشدة والعنف .

— كنا يا ابنتى لا نعرف نظريات فى التربية ولا قواعد ، وإنما كنا ننقاد فى تربية أبنائنا بفطرتنا ، وكانت

العصا عنـدنا أكبر دواء لكل أدواء الطفولة الخلقية والنفسية، فان ألهمتنا الفطرة طريقاً غير العصا لنصل به إلى ما نريد من الطفل العنيد المتلف المثير للغيظ، كان ذلك من حسن حظ الطفل ومن حسن حظنا، وإلا فان العصا أقرب ملجأ وأيسره وأسرعه فائدة.

— ذهب ابنى اسماعيل كعادته يلعب فى حديقة هذا الثرىّ، ولـكنه كان منذ أيام يحاور البستانى والبستانى يحاوره ليصل إلى الكروم. كان العنب لا يزال فجاً حصرماً، ولـكن للأطفال ولع خاص بالفاكهة الفجة لعله قلة اصطبار عليها حتى تنضج. وحاول البستانى أن يلهى اسماعيل بفاكهة أخرى ويوعود عن العنب يوم ينضج فلم يفلح معه، كما كنت لا أفلح أنا معه. وأخيراً توعده مقسماً أنه إذا صعد إلى الكروم وقطع فرعاً واحداً فسيشكوه إلىّ.

— ولـكن اسماعيل إذا أراد لعباً أو فساداً فلن يعوقه

شيء مهما عظم ، وكانت عناقيد العنب الخضراء المتدلية تزيده رغبة وتشعله عزماً . فغافل البستانى وتسلق السور ، فاذا ما كان فوق الكروم كَسَرَ وقَطَعَ وأكل وأفسد ، ما شاء له الكسر والقطع والأكل والافساد . وما إن هم بالنزول حتى لمحه البستانى فتلقاه نازلاً على كتفيه وحمله وسار به إلىَّ .

— وبين منزلنا ومنزل صديق جدك هذا مسافة غير قصيرة ، يمر فيها المار على المنزل الذى كان يجلس فيه جدك وأصدقاؤه . ومر البستانى حاملاً اسماعيل . وكان اسماعيل منذ أن لمست رجلاه كتف البستانى يصيح ويولول ، ويتضرع ويستغيث بكل مار أن يحميه مما سيلاقيه منى . وما إن لمح أصدقاء جدك حتى صاح بهم :

« يا هوه ، حشونى . أمى حتموّتنى من الضرب » !

— والتفت صاحب الدار فعرف بستانيه ، وعرف ابن صديقه فأدرك كل شيء . طالما شكا البستانى إليه

من إتلاف اسماعيل الزرع ، وطالما حاول صاحب الدار أن يشكو إسماعيل لأبيه ، ولكنه كان يشفق عليه كل مرة . وها هو اسماعيل يسير إلى عقابه وإنه لعقاب حق استأهله من زمن بعيد .

— وَبَعُد البستانى بحمله الثائر الصائح قليلاً ، فبدأت الرأفة والشفقة تدبان فى قلب صاحب الدار من جديد . وما كاد يصل البستانى إلىَّ ويشكو اسماعيل ، وما كدت أهم لأحضر العصا أضربه بها ، حتى جاءنى خادم صاحب الدار يقول : إن سيده بالباب جاء بنفسه يستحلفنى ألا أمدَّ إلى اسماعيل يداً .

– لن تتصورى يا ابنتى مقدار غيظى ساعتها . فهذا ابنى يتلف مال الغير ، بل مال الصديق ، بعد أن حاولت معه كثيراً لأصرفه عن عادة الإتلاف هذه . ثم ها هوذا يسير فى الطريق العام صائحاً أنى سأميته من الضرب أمام المارين وأمام أصدقاء زوجى . ولكن هذا صديق

زوجى يستحلفنى ألا أضربه ، فماذا يكون ردى عليه ؟ لن يكون إلا القبول . فقبلت وانصرف السيد وخادمه ، وظللت أغلى من غيظى . أى عقاب أنزله بهذا الشيطان بعد أن أساء إلىَّ وإلى صديق زوجى ؟

— وفكرت وفكرت ، وأخيراً اهتديت إلى عقاب أعاقبه به دون أن أرجع فيما وعدت به الصديق .

— كان الوقت عصراً ، وكانت الشمس قد مالت للمغيب . وكنا يا ابنتى فى هذا الزمن لا ننعم بكهرباء تريحنا وتوفر علينا كثيراً من المشاغل والمتاعب . كنا إذا غربت الشمس نعمد إلى مصابيح تضاء بالبترول لنضيئها واحداً واحداً ، ثم نعلقها فى عمود أو على الحائط ليشع نورها على المكان كله . وكم كنا نقاسى من هذه المصابيح ! فهى سريعة التلف تحتاج إلى عناية ونظافة حتى تقوم بما يراد منها . ولكن هذا هين يسير ، وإنما الخوف كل الخوف من احتمال فرقعتها

وما تجره الفرقعة من حريق ودمار .

— لست أطيل عليك الحديث حول هذه المصابيح فقد وقاك الله ووقانا شرها . ولنعد إلى اسماعيل فانى إلى اليوم بعد نحو أربعين عاماً لا أذكر هذه الحادثة إلا اهتجت لها من جديد اهتياجاً لا أفهم له سبباً ، قد يكون ألم الذكرى وقد يكون شيئاً آخر لا أستطيع أن أحدده .

— أنرنا المصابيح كلها وكان مصباح خاص نعلقه فى عمود وسط صحن الدار لينير لنا الممرات والمنافع . وما كادت الخادم ترفع المصباح إلى مكانه من العمود حتى اتقدت الفكرة فى رأسى اتقاد الشرارة المفاجئة . ونظرت إلى اسماعيل وقلت له : « سترى عقابك يا لعين بعد العشاء » ، وأكل كل من بالدار واستعدوا للنوم ، فعمدت إلى اسماعيل وعريته وعلقته فى هذا العمود تحت المصباح الذى يتهافت على نوره الناموس .

— كنت أسمع بهذه العقوبة من خدمى وفى بعض

القصص . ولكنى لم أكن رأيتها أو جربتها قبل هذا اليوم . وها هى الفكرة تأتينى وأنا فى أشد الحاجة لها ، فلم ألجأ إلا إليها .

— وصرخ اسماعيل ، والحق يا ابنتى انى لم أطق سماع صراخه . وكان جدك متغيباً عن منزله فى مهمة من مهام الجيش ، فأغلقت أبواب الدار كلها ، ودخلت غرفتى أحاول النوم . كان صراخ اسماعيل عالياً متواصلاً ، ثم سكت قليلا قليلا حتى لم يعد إلا صرخة خافتة قصيرة من آن لآن . عجبت لأمره وقلت لعله ملّ الصراخ فاستراح .

— جاهدت وجاهدت بين قلبي وعقلى ، هذا ينكر عملى ويهيج شفقتى ، وذاك يقول صبراً ان لم يكن العقاب شديداً عاد إلى ذنبه ، وفى العودة عذاب لك وله . وأخيراً انتصر قلبي وخرجت من غرفتى عازمة على فك اسماعيل وغسله لينام . وكم كانت دهشتى وكم كان احتقارى لنفسى واشمئزازى منها !

— كان اسماعيل معلقا فى العمود ، وعلى الارض جلسَتْ خادمه « صباح » وقد بلل الدمع جلبابها ووجهها ونحرها وهى لا تستطيع مسحه لأن يداها كانتا تهشان الناموس عن جسم اسماعيل . « منشة » فى كل يد تهش وتهش ، والدمع ينهمر ، وصوتها الخافت المتألم يردد كل حين :

« معليهشى ياسيدى ! الليل قرب ينتهى » ، واسماعيل لا يجيبها إلا بقوله :

« هشى يا صباح والنبى ، هشى هنا . . . وهنا »

— هذه الجارية ذات القلب الحساس لم تنم رغم حاجتها إلى النوم ، وجازفت باحتمال قيامى ورؤيتها ، وما ستلاقى إذا ما وجدتها تتداخل فى أمر من أمورى . كل هذا من أجل صبى لاعبته صغيراً ، وعاشرته بضع سنوات ، وأنا أمه التى حملته جنيناً ، وأرضعته طفلاً ، وربته صبيًّا ، ظللت أحاول النوم ولا أعبأ بصراخه . أية قسوة ! ما أحقر قلبى أمام قلب هذه الجارية !

— وقفتُ مبهوتة مغيظة من نفسى أحتقرها ، وأنا لا أرفع عينى عن « صباح » المبللة بالدمع التى لم تقف يداها عن الهش كأنها آلة مسخرة ، وكادت دمعة تنهمر من عينى لولا أن لمحتنى « صباح » فصاحت بى :

« اطردينى يا ستى ، لكن والنبى فكى سيدى اسماعيل » .

— لم أستطع أن أقول كلمة واحدة . وانما ذهبت نحو اسماعيل ، فأنزلته وأخذته إلى الحمام أغسله . وما زال المسكين يبكى ، فقد كان جسمه كله ملتهباً ساخناً وارماً .

* * *

— منذ ذلك اليوم أكبرت « صباح » واحتلت منزلة جديدة فى قلبى . ما رأيتها بعدها يوماً الا رأيتها كما كانت فى تلك الليلة تهش الناموس عن ولدى ، وتواسيه ودمعها يجرى من شدة الألم له .

وصمتت جدتى كأنما الذكرى تعاودها . فقلت :

« ولكن أين « صباح » الآن ياجدتى ؟ » قالت :

— ما كنت لأخرجها من دارى يا ابنتى ، ولو قدموا لى أحسن جوارى العالم ، وأقدرهن على خدمتى . ولكن شاءت لها الظروف أن يكون خروجها من عندى أهون ما ينزل بها ، فقبلته مضطرة . ولقد جازاها الله على وفائها لى ، ولولدى اسماعيل خير جزاء .

— سُرِقت من جدك أشياء بعد هذه الحادثة بأعوام فاتهموها . وكانت الظروف قاسية عليها ، فاعتقد كل من بالدار أنها هى السارقة . ولم أجد بين كل هذه الظروف ظرفاً واحداً يبرئ «صباح» أو يبعد عنها التهمة ولو قليلاً . قلبى كان كل دليلى على أنها لم تكن هى السارقة ، ولكن احساس القلب إن لم يستند إلى شىء عقلى أو مادى لم يعره أهل الدنيا اهتماماً ، فباعها جدك لأنها سارقة ، فخرجت ودمعها على خدها ، ولسانها يردد : الله يعلم براءتى وهو كفيل بالانتقام .

— مات جدك بعدها بأعوام ، فبحثت عن «صباح» أغفر لها ذنبها ، وأعيدها إليَّ من جديد . ولكن القدر كان قد سبقني فاستغفرها أو غفر لها . أصبحت « صباح » سيدةً زوجَ رجل ثرى كان قد ماتت زوجه وله منها أولاد . فلما آنس فى « صباح » حنواً وعطفاً على أولاده تزوجها وأغدق عليها من ماله وعطفه ما تستحق .

* * *

كان النوم قد غلبنى أخيراً بعد أن جاهدت طويلاً لأسمع تمام حديث جدتى ، فقمت إلى فراشى ، وقد بدأت « صباح » وقصتها تسيطران على أحلامى .

٣

« كم يستطيع هذا الجيش ، لكنه مكبل مغلول لا يقوى على شيء ، كالأسد المحبوس فى قفص الحديد ، لا يستطيع إلا الزئير » . هكذا قال لى أستاذى يا جدتى ، وقد مر بنا الجيش المصرى يوماً ، فرأيته ينظر للجند متألماً يغالب دمعه . منذ ذلك اليوم لا يمر بى فريق من الجند أو أسمع موسيقاهم حتى يغالبنى دمعى وتثور نفسى . وأود لو يتاح لى سبيل الانتقام ممن أوصلوا جيشنا إلى ما هو عليه

هذا سبب اضطرابى ، فما بكاؤك أنت يا جدتى كلما مر الجيش بك أو سمعت موسيقاه ؟

قالت جدتى : يذكرك الجيش المصرى يا ابنتى

بما يستطيع لو لم يضغط عليه الأجنبي بسلطانه ، ولكنه يذكرنى بكثير من هذا وبأكثر منه . يذكرنى بجهاد أبنائى فى سبيل الوطن ، وبهذا القلق والألم اللذين كنت أقاسيهما أياماً بلياليها ، لا أعرف معنى للهدوء أو راحة البال . ثم هو يذكرنى أولاً ، وقبل كل شىء ، بدم ابنى رأفت المهدر غدراً . يذكرنى برأفت الشهيد الذى لا أعرف له قبراً أبلله بدمعى فأجد فى هذا بعض الشفاء .

كنت سمعت حديث رأفت مراراً من قبل ، ولكنى أشتاق إليه دائما . وهممت أن أطلب من جدتى أن تعيده علىَّ مرة أخرى ، ولكنى خوف إثارة شجونها وجمت ، فاذا هى تندفع فيه ، وكأنما كانت تحس فى إعادته شيئاً من التنفيس عن جرح لم تبرئه السنين وإن خففت من حر ألمه .

ومسحت جدتى دمعة كانت مازالت تريد السقوط من عينيها وقالت :

— كنا يا ابنتى فى منزلنا هذا وهو قريب كما ترين من ثكنات الجيش الانجليزى ، ولم تكن العباسية كما هى الآن مليئة بالبيوت والعمارات ، وإنما كانت بيوتها قليلة منثورة هنا وهناك ، بين البيت والبيت مسافة بعيدة ، كان بيتنا هذا والبيت الذى يجاورنا يكادان يكونان الوحيدين فى كل تلك المنطقة ، فلا ترى العين على مدى البصر سواهما شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا .

— وكان جو الوطن إذ ذاك كله غيوم كثيفة قلقة مضطربة ؛ فتوفيق باشا معتصم بسرايه فى رأس التين ، وعرابى باشا من ورائه الجيش ، وقد تجسمت آمال المصريين ومطالبهم فى شخصه ، والأجانب والانجليز خاصة يرون الفرصة قد سنحت لتدخلهم فى شؤون البلاد وأخذ ما يمكن أخذه منها . وكان لى إذ ذاك ثلاثة أبناء فى الجيش : اثنان فى حرس توفيق باشا وواحد فى جيش عرابى باشا .

— ولم يكن الجيش يا ابنتى كهذه الأيام يُدْخلون فيه كل من يئسوا منه فى العلم أو العمل . قد ارتقوا فى اختيارهم حديثاً ، وأصبحوا يشترطون فى داخلى الجيش حيازتهم الشهادات ، ولكن أيام أبنائى كانوا يأخذونهم من مدارسهم العالية بعد أن يكونوا قد درسوا بها سنتين أو ثلاثاً .

وظلت جدتى تتكلم عن أبنائها ، وكم سنة درس كل واحد منهم فى دراسته العالية ، وأى فرع كان قد تخصص فيه ، ولكنى كنت أفكر بعيداً عن قولها . كنت أفكر فى هذه الظاهرة ، ظاهرة شروط القبول فى الجيش ، وأخيراً وصلت... سياسة الاستعمار ! ما أهولها ! وما أدنأ السبل التى يصل بها المستعمر إلى ما يريد من المستعمرة ! كانوا يُدْخلون مدرسة الحربية أو البوليس كل من يئس منه ، لأنهم لم يكونوا قد شكلوا أهل البلد كما يريدون بعد . كانوا يأخذون شر من فى هذا المجتمع

الذى لم يدب فيه الفساد بعد . فلما أيقنوا من فساد المجتمع ، وأدخلوا نظام المدارس تحت سلطانهم وجعلوها قوالب يصبون فيها المصريين كما يريدون ، واستيقنوا أن المدارس أصبحت تخرج لهم نوعا من الشباب كالذى كانوا يقبلونه ، اشترطوا الشهادات وشروطاً أخرى ليضيقوا العدد ، فلم يدعوا باب الحربية مفتوحاً لكل من يريد ، لئلا يتوفر العدد ، ولئلا يدخل فيها من قد يصبح زعيما حربياً يوماً ما ، ومن قد ينفخ فى وطنه الروح الحربية من جديد . وما عملوا الا لاماتتها لأنهم لا يخشون غيرها .

مسكينة يا مصر ، أصبحت أكبر شهادة تقدم للدخول فى جيشك أن يتظاهر المتقدم ، أو أن يصرح بأنه لا يهمه أمرك ، وأنه لا يفكر فى خدمتك . مسكينة يا مصر ، أصبح من أبنائك من تسمح له روحه ويرضى عنه ضميره إذا قال هذا القول متمسحاً بأسباب مهما جلّت فهى أمام حبك واهية ، وأمام ما يجب لك حقيرة

دنيئة . متى متى يقوم منك الزعيم . . . . . .

وانقطعت سلسلة أفكارى على قول جدتى :

— كنت أبيت الليل ساهرة ودمعى لا يجف حتى الصباح . ترى لو اشتبك الجيشان ، لو احترب الأخوة ! لو قتل الأخ أخاه ! لو قتلوا جميعا ! لو فقدت ثلاثتهم ، وهم كل ذخرى بل هم كل حياتى ! أبنائى أين أنتم وفيم أنتم ؟ . . . . .

هكذا يا ابنتى كانت الهواجس تلهب رأسى ، ولم يكن لدينا كالآن جرائد نعرف منها الأخبار ، لم يكن لدينا أى شىء نستطيع الوصول به إلى معرفة ما قد تم فى الاسكندرية . أربعة أشهر يا ابنتى قضيتها فى الجحيم ، اربعة أشهر كفرت وكفر المصريون كلهم عن سيئاتهم أى تكفير .

— كانت الأخبار تأتينا لكن متناثرة مفككة ، بعد وقوع الحوادث بأيام بل بأسابيع . قالوا إن الانجليز

ضربوا قلاع الاسكندرية بأساطيلهم ، فارتج قلبي على أبنائي . كانوا فى الاسكندرية ، وكانوا فى حرس توفيق باشا ، ولكن من يدرى ؟ قد يكونون أصيبوا هم أيضاً . وأخيراً جاءنى لخبر أنهم لم يصابوا فى ضرب الاسكندرية .

— ولم ينته الحرج يا ابنتى بضرب الاسكندرية ، وإنما كان يسير مطرداً نحو شدته . ثار المصريون ثورتهم واندفعوا وراء زعيمهم عرابى باشا يريدون وضع حد فاصل بينهم وبين تدخل الأجنبى .

— واتُّهم عرابى باتهامات شتى ، ورأى عرابى أن الخديوى قد خدعه الانجليز ، وأنه أمن إليهم أكثر مما يجب . فلم يكن عرابى والمصريون معه ليفهموا حسن نية الانجليز بعد ضربهم قلاع الاسكندرية وتدميرها . فأشهر عرابى الحرب على الانجليز ، وحاربهم وحاربوه . وأعلن الخديوى أنه غير مسئول عن أعمال عرابى وأصبح عرابى زعيم الأمة ، والجيش من ورائه . وحارب عرابى

فانهزم ؛ وأخذ يتقهقر إلى أن وصل إلى التل الكبير . وتحصن فى التل الكبير واستعد لموقعة هائلة ، موقعة فاصلة علق المصريون عليها آمالهم وكل مستقبلهم .

— كان ولدى رأفت فى جيش عرابى ، وكم كنت أود لو أن ولدىَّ الآخرين كانا فى نفس الجيش ، كم وددت لو أنى قدمت نفسى فى هذه الموقعة مع أبنائى) . لم أدخل الحرب ولكنى قاسيت بعيدة عنها ما كنت أرضى بالحرب بدلاً منه . ان أهوال القتال مهما اشتدت لا تعادل آلامى وتهديد آمالى وحَرّ انتظارى فى هذه الأيام . ولأعترف لك يا ابنتى بما اقترفت فى حق وطنى إذ ذاك . شعرت ساعتها أنى لو خيرت بين موت أولادى الثلاثة ، وبين انتصار عرابى فى التل الكبير لاخترت وتمهلت لأفكر . ولم أخفى عليك ؟ لقد سألت نفسى هذا السؤال ، ولقد سمحت لى نفسى أن أتردد وأن أميل أخيراً إلى تفضيل حياة أبنائى . كم كفرت عن هذه الساعة وعن هذا

الخاطر . كم لمت نفسى بعدها وقلت لها : القَىْ جزاءك على خاطر مر بك لم يكن صريحاً خالصاً فى جانب الوطن وفى سبيله .

— أيامٌ مرت على كالسنين المليئة هولا وألما وخوفا والتياعا . أيام بين خبر زحف عرابى باشا إلى التل الكبير وبين خبر انهزام عرابى باشا فى التل الكبير .

— انهزم زعيم البلد ومحط آماله ، وانهزم الجيش معقد الرجاء وسبيل النجاة الوحيد ، وختم من جاءونا بالخبر قولهم بأن غداً يدخل الجيش الانجليزى القاهرة ليعسكر فى ثكنات العباسية .

— لن أستطيع أن أصف لك هول وقع هذا الخبر ، لقد أصبح أهل القاهرة كلهم وقد تملكهم الخوف ، ودب اليأس فى قلوبهم ، يتلهفون على الهرب بأى سبيل حتى لا يعرضوا أنفسهم لما سينزله بهم الجيش المحتل . أصبحت هذه تذهب عند تلك لأن بيتها يبعد عن

الثكنات كذا من الأمتار . كأنما فى مثل هذا البعد شىء من الأمان . وفكرت كما فكروا فى الهرب والاختفاء . ان بيتنا قريب جداً من الثكنات ، وفى هذا القرب خطر علينا عظيم . وكانت لى صديقة تسكن حى بولاق ، فقلت أسير إليها لعل فى البعد نوعاً من الأمان . فاستأجرت عربة لم أجد غيرها فى مثل هذا اليوم ورتبت حوائجى ، وأركبت أطفالى الصغار ، ولكن خاطراً أفسد علىّ كل هذا الترتيب . قلت فى نفسى : إن دخل الجيش العاصمة فالعاصمة كلها فى خطر ، فما معنى الهروب من حى إلى حى ، إن الله إن أراد بنا الشر لحقنا أنّى سرنا ، فَلِمَ الفرار من المقدور ؟ ولِمَ ألتجئ إلى صديقة ولا ألتجئ إلى الله ؟ سيسمع دعائى دون شك ، وليفعل بعدها ما يريد .

— وأنزلت أولادى ودخلت دارى من جديد ، وعمدت إلى المنافذ كلها فأغلقتها ، وإلى الأنوار فأطفأتها ،

ووقفت أرقب الطريق من وراء النافذة . وصغارى يسألوننى بين حين وآخر ماذا جرى ؟ وأين إخوتنا الكبار ؟ وما يبكيك يا أماه .

— طالما شهدونى باكية فى هذه الأيام ، ففوق اضطراب الخوف من الحرب كنت أخاف أن تطول الحال بنا فينفَدُ ما لدىَّ من مال . كانت القاهرة كلها يا ابنتى وهى عاصمة البلاد مهددة بشبح الفقر ، وخاصة الأُسَر التى كان يعولها من بالجيش . فما بالك بأسر الريف الفقيرة المسكينة . وكنت أخاف على قلوب صغارى البريئة من الألم فأخفى دمعى وأقول لهم : بعد قليل تعرفون ، هيا إلى ألعابكم العبوا بها . ويشهدون ويشهد الله ان لعبة واحدة جديدة لم يروها منذ شهور ، بل منذ عام . وكأنما قد ملوا السؤال ورأوا فى طاعتى ما قد يجلب لى بعض السكون . فراحوا بعيداً عنى ولم أعرف ماذا عملوا إلا أن أكبرهم كان يجىء من حين لحين يهدئنى

ويقول : صبراً يا أماه . ألم يحضر اخوتى بعد ؟ ألم يأت خبر من عندهم ؟ فأقول له : دعنى هنا يا بنى واذهب أنت لاخوتك تلهيهم باللعب أو الكلام حتى يأتينا الفرج .

— وعن بعدٍ سمعت صوت الجند قادماً ، فكأنما صوته نار دخلت أذنى لتحرقهما بحرها الكاوى . وشيئاً فشيئاً اقتربت أصواتهم حتى ظهروا وهم يسيرون ضاحكين مهللين يصفرون وينشدون أناشيد النصر والمجد . وتساقط دمعى غزيراً حاراً ، فقد كانت صورة كل واحد منهم شوكة فى عينى ، أحس ألمها فى رأسى المصدع الذى يكاد يسقط من ثقله . وأسندت رأسى بين يدى وتركت دمعى يسقط ما شاء له السقوط ، وأنا أغلى من غيظى وحنق . هـذا الأجنبى يدخل وطنى غاصباً مستعمراً لا لشىء إلا لأنه أقوى جنداً وعدداً . ومن يدرى لعلهم انتصروا فى الحرب بخديعة لا عن قوة وصبر .

— وما كاد خيالى يوصلنى إلى الحرب حتى ذكرت

أبنائى ، وكان منظر الجيش وشدة الغيظ قد أنسيانيهم . من يدرى لعل هؤلاء قتلة أبنائى أيضاً ! وهنا لم أطق النظر إليهم . وما إن لفتُّ رأسى كى لا أراهم حتى لمحت ضابطاً منهم يتجه نحو دارنا ويقرع الباب قرعا شديداً .

— ولم يكن خادم بالمنزل كله ، لأنهم طلبوا إلىَّ فى هذا الحرج أن يعودوا إلى أهليهم حتى تنجلى الحال ، فتركتهم لأهلهم فهم أولى بهم وأحق بما قد يستطيعون فى هذا الحرج . نعم يا ابنتى فى تلك الظروف تلين القلوب ويعطف بعضها على بعض . لم أرهم خدمى الذين تطوعوا لخدمتى إزاء أجر ينالونه ، لم أفكر فى أنهم ينفعوننى فى مثل هذا اليوم ، رأيتهم يومها قلوباً محرقة مثلى لا يخفف عنها إلا الأهل والأقارب ، رأيت أهلهم وهم يبكونهم فتركتهم بل حثثتهم على الاسراع إليهم . ولم يبق لى من خدمى إلا عبدى وجوارىّ فلم يكن لهؤلاء المساكين أهل أو أقارب إلا أنا وأولادى . وكان مسلك

هؤلاء ومنظرهم مما يبعث على الضحك ، لولا أن الوقت حرِج مخيف . فما سمعوا أخبار الحرب والانهزام حتى صعدوا إلى أعلى غرفة على سطح المنزل واعتصموا بها أياماً يولولون ويبكون ويصرخون . ولقد تركتهم يفعلون ما يريدون ، فهذه طريقة تفريجهم عن كربهم ، وان كنت لم أعرف بالضبط سر بكائهم وعويلهم . لكن بعد عودة أولادى عرفت أنهم كانوا يندبون أولادى ويبكونهم ، وهم يعرفون أنى لا أطيق هذا النوع من البكاء ، فراحوا فى معتصمهم يبكون ماشاءوا ، يا لقلوبهم الطاهرة المخلصة ! قلوبهم التى تراعى مزاجى فى أشد أوقاتهم حرجا وحزناً وخوفا ! ...

— ولنعد إلى الطارق الذى لم أكن حسبت له حساباً ، من ينزل له ؟ خدمى ليسوا فى المنزل ، ولو كانوا لما عرضتهم لهذا الخطر ، وعبدى وجوارىّ معتصمون بحصنهم العالى ، ولن يطاوعنى قلبي على إنزالهم . وأهلى

يتلخصون فى هؤلاء الأطفال الصغار . جئت مصر غريبة عنها وما مكثت بها قليلاً حتى تزوجت . ومات والدى الذى جئت معه بعد زواجى بقليل فلم أعرف بعده أقارب إلا زوجى وأولادى ، واستأثر الموت بجدك فلم يبق لى إلا أولادى وصغار أولادى ، لأن كبارهم كانوا فى الحرب .

— وجاءنى أكبر من كان معى من أولادى يقول : « أمى ، سأنزل لأرى ما يريد هذا الانجليزى » قلت : كلا ، أنا التى ستنزل إليه . قال : « كيف يا أماه ؟ انه رجل وهو غريب ، وهو عدو سكر بنشوة النصر ، كيف تقابلينه ؟ وما أنا فى المنزل ؟ طفلة ترضع ! » قلت : ولدى كلمة واحدة . أنا التى ستنزل إليه . قال : « أمى ، إنه انجليزى وهو لا يعرف العربية ، فكيف تتفاهمان ؟ » . وجمتُ أمام صدق ملاحظته . ولكن لن أدعه ينزل وحده قلت : انزل يا بنى ، إنى فى أثرك . وعدوت

إلى المطبخ فأخذت سكيناً حادة أخفيتُها تحت ثيابى ، ونزلت السلم وراءه حتى جئنا الباب ففتحته ووقفت خلفه .

— ورأيت من الانجليزى رجلاً فى غاية الأدب ، يكلم ولدى بما لم أفهم ، ولكنى لمحت فيه ذوقاً وأدباً واحتراماً جعلنى أنتظر . ولم أكد أنتظر حتى صاح فىَّ ولدى مهللاً فرحاً يقول : « أمى ! إن أخوىَّ اللذَين فى الحرس بخير وعافية ، وقد طلبا من هذا الانجليزى أن يمر بك ليطمئنك عليهما » .

— نسى ولدى أنى كنت مختبئة من شدة فرحه . ونسيت أنا ما هو أخطر من هذا من شدة فرحى : نسيت انى إزاء واحد من الجيش المغتصب ، انى إزاء انجليزى كان منظره منذ دقائق يشوك عينى ، ويصدع رأسى ، ويبكينى غيظاً وحنقاً ؛ نسيت أنى أمام عدو غلب أمتى ، فقلت لولدى : قل للضيف يدخل ليستريح قليلاً ريثما يشرب فنجاناً من القهوة .

— رفض الضابط عرضى لارتباطه بمواعيد فرقته ، وما كاد الباب يقفل حتى صحت : ولدى ، ولدى ! هـذه سكينى ، اقتله ! اقتله ! إنه انجليزى ! إنه هازم أمتك ، إنه هازم أخيك رأفت ! إنه . . . وكدت أقول قاتل رأفت لولا أنى أحسست أنى سأقول كذبة هائلة .

— وهدأنى ولدى وكفكف دمعى وقال : أمى ! إن رأفت لم يمت ، أنا أحس هذا ، هو قادم إلينا عما قريب . أمى لا تبكى ، إخوتى فى أمان .

— فى غرفتى المظلمة ظللت أبكى وأبكى . ولو كان هذا الضابط جاءنى بنعى ولدى ما بكيت أكثر مما بكيت . كنت أبكى وطنى يا ابنتى وانهزام ابنى رأفت . كنت أبكى أرض مصر التى أصبحت يطأها الأجنبى ظافراً مزهواً فخوراً بالنصر . مصر وطنى الذى لم أولد به ولكنى لم أعرف لى وطناً سواه . مصر التى قضيت بها أسعد أيامى ، مصر التى سال دم زوجى وفاضت روحه

من أجلها والتى سال دم أبنائى ، ومن يدرى ؟ لعل رأفت قتل فى سبيلها !

— وطُرِق الباب فنزلت مسرعة ، فاذا بى أسمع شهقة وبكاء ؛ كان ابنى سبقنى إلى الباب ، وكان الطارق ابنى رأفت ، والأخوان يتعانقان عناق الهزيمة والخيبة ، ويبكيان لا من فرح اللقاء بعد انقطاع الرجاء ، وإنما يبكيان من ألم الهزيمة وذل الانكسار .

— وعدَا رأفت إلىَّ والدمع يبلل صدره ، وعانقنى وقبلنى . وأخيراً استطاع أن ينطق : « أُماه ! لا تبكى ، إن إخوتى لم يصبهم أذى ، وها أنا ذا سليم أمامك »

— ولكنه كان يخادع نفسه فى طمأنتى على أولادى . كأن يحس تماماً أنا كلنا نسينا كل شىء فى تلك اللحظة إلا مصر المهزومة . فما أتم كلامه حتى رمى رأسه على صدرى وأخذ يبكى ويبكى . قلت : بُنىَّ ، إن ذل الانكسار أليم ، وإن ألم الهزيمة لا يعادله ألم فى نفس

الجندى ؛ ولكن صبراً إن الله لا يضيع أجركم . إن الله الذى يرعانا جميعاً لن يرضى عن هذا الظلم ، وسينتصر الحق عما قريب . صبراً بُنيَّ لا تبك .

وتساقطت دموع جدتى حارة ساخنة كأنما رأفت ما زال على صدرها . ثم قالت شاهقة من البكاء : وإلى الآن يا ابنتى لم يرفع الظلم عن مصر ، وإنما ازداد بأس الظالم وعتوه .

كنت أعرف أن الحديث عن مصر يؤلم جدتى ، تلك العجوز التى عاشت عمرها وهى تغذى مصر بأبنائها وزوجها وبقلبها . لم يعمل واحد من أبنائها إلا فى الجيش المصرى ، ولم يمت زوجها إلا فى خدمة الجيش المصرى ، بل فى ميدان الحرب من أجل مصر وفى سبيلها . لقد علقت هذه العجوز ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، إن كان لا يزال لها مستقبل ، بمصر وبآمال مصر . وكذلك أبناؤها كلهم لم يعرفوا ميداناً للعمل إلا جيش مصر .

أحاديثها مع زوجها وأحاديثها مع أبنائها كلها كانت تدور حول مصر ، وها هى اليوم أحب ما تحدثنى به إليها وإلىّ حديثها عن مصر .

وأردت أن أغير موضوع الكلام ، فقلت ساهية : « ولكن ابنك رأفت مات فى حرب » ، وكأنما زدت النار حطباً وأنا لا أدرى ، فقد اندفعت جدتى ثائرة ، وقد تقلص وجهها المجعد الجميل ، وجحظت عيناها الباهتتان الغائرتان الدامعتان . ومن فمها الدقيق الذى ظهرت عليه معالم الكبر والوهن ، خرجت كلماتها حارة قوية حزينة ساخطة :

— لقد غدر به اللئام ، لقد قتلوه وقتلوا عشرة آلاف جندى مصرى غدراً وخيانة وظلماً . ولو كانوا يا ابنتى قدموهم إلى المقصلة واحداً واحداً لكان أشرف لهم ؛ فهم أقوياء ، وهم يريدون فناء الجيش فليفنوه علناً . وليشجعوا شجاعة تمكنهم من احتمال اشمئزاز العالم من

الظلم والجور . أما أن يتستروا وراء الحيل والخديعة ليفوزوا بمآربهم الدنيئة وباحترام العالم فى وقت واحد ، فهذا شر ما أعرف من حالات الجبن . إن الطاغية الذى يقتل ويُشرّد ويعذب ويسجن ليفوز باحترامى ، وإن باء ببغضى واشمئزازى ، لأنه يظلم ويواجه العالم ظالماً ؛ لأنه يظلم ويعرف لنفسه قدرها ، فينزهها عن الخيانة والغش والخداع .

— ما دخل الانجليز مصر حتى عرفوا أن أخطر ما فيها جيشها . ولقد بلوا هذا الجيش فى حربهم فألفوه شجاعاً صبوراً هزيمتُه تكلف كثيراً ، وقد يعجزون عما تكلف . ما دخل الانجليز مصر حتى عرفوا أن جيشها على قلته ليس جيشاً يستهان به . فقالوا إلى هذه الشوكة فى سبيل أخذ البلاد نقلعها ونستريح من خطرها . وهكذا دبروا ما يسميه التاريخ « موقعة هكس » ، وما أسميه أنا « خديعة هكس » .

— بعد ثلاث سنين من دخولهم مصر جاءتهم الفرصة سانحة مواتية . قامت ثورة المهدى فى السودان واستفحل أمرها ، فحشدوا عشرة آلاف جندى مصرى وأرسلوا معهم القائد « هكس » الانجليزى . ولم يشك أحد من المصريين إذ ذاك فى أن الانجليز لا يريدون بهذا الجيش إلا أن تخمد ثورة المهدى فى السودان . فسار الجيش وآمال المصريين معلقة به ، هذه لها ابنها ، وتلك والدها أو زوجها أو أخوها ؛ أما أنا فكان لى فيه ولدى رأفت .

— ودَّعت يومها ولدى رأفت وأنا أحس أنى لن أراه بعدها ، ولكن غالطت نفسى وقلت : هذا كان شعورى يوم ودعته ليسير مع عرابى باشا ، وها هو قد عاد سالماً ؛ فكفكفت دمعى وقلت : سر يا ولدى والله سيرعاك ويردك سالماً لأمك .

— سار الجيش وراء قائده سليمان نيازى باشا ورئيس أركان حربه هكس باشا . وتحمل الجيش ما تحمل من

مشاق الطريق ، وألم الجوع ، والصبر على العطش . وما قاربوا « الأبيَّض » بعد انتصارهم على وكيل المهدى قربها حتى طمعوا فى فتحها ، وأرسلوا إلى الحكومة لتأذن لهم فأذنت . وهنا بدأ هكس مكيدة الانجليز : قال إنه لن يسير إلى « الأبيَّض » إلا إذا كانت القيادة له ، وإلا فهو غير مسئول عن النتائج . وأسلمت القيادة له وأرسلوا معه حكمدار الخرطوم علاء الدين باشا ؛ وسار هكس بالجيش المصرى لفتح « الأبيَّض » فى طريق وعر صعب المسالك ، لا ماء فيه ولا مأوى . وأشار عليه علاء الدين باشا بألا يتبع هذا الطريق ، وأبان له وعورة مسالكه وقلة مياهه وخطورته ؛ فأبى القائد إلا تنفيذ خطته ، وسار الجيش جائعاً عطشاً ، مهدداً كل آن بخروج الدراويش عليه من الأحراش . وجاعت الجياد وعطشت وسقطت اعياء ، وأصبح أمر الجيش مؤلما فظيعاً أشد الفظاعة ؛ أصبح جسما بدأ الموت يدب فيه من الجوع والاعياء والعطش .

كل هذا وهكس مصمم على السير فى الطريق الذى اختاره . وما ان شارفوا ماء حتى اندفعوا نحوه فى لهفة وسرعة ، ومدوا أعناقهم من العطش إلى حافة الماء يشربونه بأقرب طريق وأسرعه . وهنا خرج عليهم الدراويش من أتباع المهدى وذبحوهم ذبحًا وأفنوهم إفناء . ولم يبق من الجيش كله إلا قلة لا تجاوز بضع مئات ممن استطاعوا الاختفاء بين الأشجار أو بين جثث القتلى .

— خديعة والله يا ابنتى دبروها وأحكموا تدبيرها .

وهل يعقل أن يراد بجيش الثورة العرابية بعد ثورتهم بقليل إلا الشر والدمار ؟ لقد خسرت انجلترا قائداً واحداً قَبِل أن يضحى حياته فى سبيل إضعاف الجيش المصرى أو الانتقام منه . أما مصر فقد خسرت مقابل هذا القائد الواحد حاكماً ، وستة قواد ، وعشرة آلاف جندى بضباطهم ! جازاهم الله يا ابنتى إن عز الدنيا لا يدوم ، وسلطانهم مهما قوى فله ساعة . لهم يوم يدك فيه

جبروتهم ، وتُذل فيه نفوسهم السكرى بنشوة النصر .

— وما جاءنى خبر تلك المجزرة حتى جزعت على رأفت كل الجزع . ولست أدرى كيف أن قلبي الذى لم يكذبنى قط لم يشأ أن يصدق موت رأفت . كان قلبي يحدثنى دائماً أنه حى لم يذبح مع من ذبح . قالوا إن قلة قليلة نجت ولم نكن نعرف كيف نجت ، فقلت إن رأفت فيمن نجوا ، إن رأفت لم يمت . ويعلم الله أنى بعد معرفة كيفية نجاتهم لم أتمنَّ حياته وفضلت موته .

— ولم أكن أعرف يا ابنتى المشايخ ولا السحر ، ولكن صديقاتى كن يعرفن هذه الأمور ويعتقدن فيها اعتقاداً راسخاً . فلما رأين لوعتى وحيرتى وآلام الشك الضعيف الأمل جداً . قلن لى استشيرى الشيخ فلاناً ، إنه صادق لم يكذب قط . وذهبت مع إحداهن عند الشيخ وأعلمته طلبي . وبَعد مراسيم سخيفة لم أشعر بسخافتها إلا بعدها بكثير ، بعد أن أفقت من الكابوس

المزعج الأليم قال لى : « ان رأفت ولدك حى لم يمت . وانه يهيم وحده وسط هذه الأدغال ، وانه واصل إليك وان تأخر » .

— زاد اعتقادى بعدها أن رأفت حى . ولكم نهرنى ولدى الكبير قائلاً لى : « أماه ! ان رأفت مات ، فاحزنى عليه حزن الثكالى ، لكن أريحى نفسك من آلام هذا الشك وهذه الآمال التى تعرفين فى قرارة نفسك أنها خائبة . ما ذهابك إلى المشايخ وأنت تعرفين دجلهم وخداعهم ؟ أريحى نفسك يا أماه واطلبى من ربك صبراً وعزاء ، فهذا خير لك » .

— كنت أقول دائماً : كلا رأفت لم يمت ، قلبى يحدثنى بهذا ، وان كان حديثه خافتاً كما لم أعهده من قبل . وكنت إثر كلام ولدى أحس بضعف الأمل فأسرع طوراً لهذا الشيخ وطوراً لذاك ، فيؤكدون لى جميعهم أنهم يرون رأفت حيًّا بين الأدغال يسير نحوى .

— إن حزن الأم على ولدها لا يعادله حزن مهما جل وعظم ، لكن هذا الحزن درجات ، وللزمان أثر فيه . وأى شيء يا ابنتى لا يخضع لجبروت الزمان ؟ ان شر ساعات هذا الحزن ساعاته الأولى ، فليس أشق على الثكلى من احتمال الساعات التى تلى نعى ولدها مباشرة . ولقد قاسيت هذا الألم الممض مراراً فى رأفت ، مر على الشهر الأول وفى كل يوم يردد عقلى نعى رأفت لقلبى ، فيأبى القلب أن يصدق ، ثم يعود فيصدق ، فاذا ما بدأ أثر الزمن والعزاء ينفذان إلى هذا القلب الجريح ثار القلب ثورته على القدر وعلى الدنيا وصاح بى : رأفت لم يمت ، ان القدر لن يقسو عليك أكثر مما قسا .

— مضى الشهر يا ابنتى وكل ساعة من ساعاته تسير كأنما قد حملت حديد العالم كله ، فهى وئيدة بطيئة ثقيلة طويلة ، وبدأ الزمن فعله فكنت أنسى رأفت ساعة لا ذكره أياما ، كنت أقنع بموته لأثور ثانية وأعتقد أنه

حى . وهكذا مرت علىَّ السنون يا ابنتى وأنا فى حيرة وألم ، لا ادرى كيف احتملتهما .

وبعد أعوام عاد من السودان بعد فتحه من كان قد شهد الواقعة ، فاستدللت على أحدهم وذهبت إليه بنفسى دون علم أولادى وسألته : أتعرف ابنى رأفت ، الضابط فى فرقة كذا ؟ قال : « نعم » . قلت : أين هو ؟ قال : « قتل ياسيدتى ، أو ذبح على الأصح فيمن ذبح » . قلت وقد بدأت أبكى دون وعى : لكنه حى ؟ قال فى شفقة وحسرة : « ولكنى رأيته مقتولاً بعينى » . فشهقت وقلت : هو حى ، هو حى . وأخذت أبكى وأبكى . فخفف علىَّ الرجل بعض ما أجد وقال : « سيدتى : عزاء جميلا وكفاك فخراً أنك قدمت ولدك على مذبح الوطن » . قلت : جزاك الله خيراً يا بنى .

— منذ أن فاه الرجل بعبارته هذه مُلِئَ قلبى فخراً وأمناً لم أحسهما منذ شككت فى موت رأفت . نعم قدمت

من أجلك يا مصر شابًا فى العشرين من عمره ، لم يملك إلا حياته فقدمها على مذبحك غير طامع فى شكر أو فخر أو ذكرى . فى قلبى هنا كل مابقى من ذكرك يا رأفت . وبموتى القريب يا ابنتى تُطوى ذكراه ، وكأن لم يكن . حياة الجندى ما أقسى وما أكثر ما تكلف وأشقه ، لكن ما أنبلها وما أعظمها ! !

* * *

سكتت جدتى وسمعتها تتمتم : كلا يا قلب ، إن رأفت مات ، فلا تشق الجرح جديداً بعد أن بدأ يندمل .

كان قلب جدتى ما زال يقول لها : « رأفت حى » .

ودقت موسيقى الجيش مرة أخرى بمرور فرقة ثانية ، فأعادت جدتى كلماتها بنغمة حزينة فيها استسلام يائس مرير : « ويذكرنى الجيش أولاً ، وقبل كل شىء ، بدم ابنى رأفت المهدر غدراً . يذكرنى برأفت الشهيد الذى لا أعرف له قبراً أبلله بدمعى فأجد فى هذا بعض الشفاء » .

٤

وقالت جدتى :

— كنا يا ابنتى أسعد منكم حالاً مهما حاولت اقناعى بعكس هذا ؛ كنا لا نشغل أنفسنا بما تشغلون به أنفسكم أنتم الآن . كان يوم الرجل يقضى ما بين عمله وبيته . لم تكن هناك قهوات يضيع فيها الشباب والشيوخ أحسن أوقاتهم وأكثرها ملاءمة للعمل . لم يكن المار فى الشوارع يرى هؤلاء الجالسين على قارعة الطريق ، لا عمل لهم إلا شرب القهوة والدخان ، أو ما هو أكثر منهما ضرراً ، وإلا الكلام الذى لا يدور حول الخير ، بل أكثر ما يدور حول الشر . كان الصحب يجتمعون فى الدور .

قلت : وفى الدور يفعلون ما يشاؤون .

قالت جدتى : إن للدور مهما قُلْتِ حرمتها ، إن الرجل مهما يفسد لن يستطيع فى بيت له حرمته مايستطيعه فى دار لهو أو قهوة ، ليس له أى حرمة خلقية . لا يا بنتى ، لا تحاولى أن ترضينى عن هذا الزمن . سلى الرجال أنفسهم ألم يكونوا أسعد حالاً يوم كانوا يعملون ولا شاغل لهم إلا العمل ، يتبارون فيه ويتنافسون فى اتقانه . سليهم عن حالهم ، يوم كانت وظائف الحكومة أكبر ميدان وأفسحه لخدمة الوطن ، ثم سليهم عن حالهم بعد أن أصبحت دور الحكومة ووظائفها أضيق الميادين لخدمة الوطن خدمة صادقة مخلصة . سليهم أحالهم اليوم ، وقد أصبحوا مشغولين بالعلاوات والترقيات ، بالانتقامات والخصومات ، بالمندوب الجديد والمندوب القديم ، بالوزير المستقيل والوزير الآتى ، بالنظام الجديد والنظام القديم ؛ سليهم أحالهم تلك وذبذبتهم وعدم قرار نفوسهم وتهديد مصالحهم ومعاشهم كل حين أم حالهم

يوم كانوا كلهم إخوة ، وكلهم يداً واحدة ، وكلهم كلمة واحدة ، يسعون لغاية واحدة هى أنبل ما عرف التاريخ من غايات .

قلت : دعيك جدتى من رجال اليوم ، ولنا فى شباب الغد عزاء . ألا ترين كيف بدءوا ينفرون من سياسة الشيوخ ؟

قالت جدتى : لا شيوخ ولا شباب . انظرى إلى هذا الشباب الذى تعقدين عليه الرجاء . انظرى إليه كم عدده وكيف حماسته إذا ما التف حول راقصة أو مغنية . ثم ابحثى عنه فى اجتماع سياسى ، أو فى مشروع اجتماعى . لا يا ابنتى إن الحال لا تبشر بخير إلا أن تحدث المعجزة ؛ ومصر بلد السحر والمعجزات ، فلننتظر المعجزة ، فقد لا يطول الانتظار .

قلت : جدتى ! ما أكثر تشاؤمك ؛ وكم أكره حديث التشاؤم . إنى واثقة من أن شباب اليوم سيحققون

ما عجز عنه شيوخ الأمس . وليكن هذا بمعجزة أو بغير معجزة . سننال ما نسعى إليه لأنه حقنا ، ولأنا نؤمن بحقنا إيماناً نسترخص فى سبيله كل تضحية وكل ثمن . صبراً جدتى ، إنا نسعى وكل سعى يغذوه الايمان لا بد أن ينجح .

قالت : ما أجمل تفاؤلك يا ابنتى ، ويعلم الله كم أحبه لك . تفاءلى فلن يكون سعى إلا لمتفائل ، واسعى فلن يكون نصر إلا لساعٍ . سيروا فى طريقكم فسيخفق قلبى فى قبرى فرحاً لنصركم ، وسترضى روحى فى عليائها ، يوم ترى مصر حرة آمنة عظيمة مجيدة .

قلت : كنتم يا جدتى أسعد حالاً لأن سعيكم لم يكن محفوفاً بالصعاب التى تحف سعينا . ولكنا نرى فى هذه الصعاب ، وفى تلك التضحيات ، لذة جديدة . إن هذه الحوادث التى تسخطك ما هى إلا دروس تلقى ، دروس قاسية تتكرر ، وفى قسوتها وتكرارها حِكم غاليات .

قالت جدتى : عسى أن تجد الحكمة سبيلاً إلى من يفهمها . لكن دعيك من الشباب وتعالَىْ إلى الشابات أترينهن أسعد حالاً من أخواتهن شابات الجيل الماضى والجيل الذى سبقه ؟

قلت : بلا شك .

قالت : كل شىء إلا هذا . أهذه التى تتبرج وتكشف عن أعظم جزء ممكن من جسمها وتسير فى الطريق العام لفتاً للأنظار ، فلا تظفر بالطبع إلا باعجاب شر من فى هذا الطريق وأحطهم خلقاً . أتلك سعيدة الحال أم فتاة الأمس التى تظل محجبة فى دارها كريمة مكرمة ، يتهافت الشبان على طلبها ، فيختار لها الوالد ذو الخبرة والدراية أصلح هؤلاء لها ، فتعيش حياتها معه يعرف لها كرامتها ويحترم مكانتها ؟ أزوجة اليوم التى تظن فى نفسها ما ليس فيها ، فتتكبر على زوجها حيناً ، فاذا ما خاصمها سعت إليه لترضاه ، أم زوجة الأمس التى كانت

تعرف مكانتها تماماً فلا تتكبر حيناً لتذل نفسها أحياناً ؟

قلت : كلا جدتى لم تكن نساء الجيل الماضى كما تصفين ؛ وإنما وصفك هذا وصف قلة فلا تحكمى به على المجموع . كلا جدتى لا تنظرى إلى ظواهر نساء اليوم فتحكمى عليهن بها . ولئن أسخطك تهتك الفتيات وإهدارهن كرامتهن ، فان هذا لا يسخطنى فحسب وإنما يفجرنى غيظاً . إن هذه التى ترينها تعنى بجمالها ، وتتهادى فى مشيتها وتحاول لفت الأنظار ؛ إن الفتاة التى تهدر كرامتها إهداراً ؛ إن هذه ليست فتاة اليوم ، ولكنها الضحية . هى الدرس يلقى لتتعلم الفتيات الأخريات . هى الهشيم يُحْرَق لتزداد نار التطهير وقوداً واشتعالاً . هى المادة تكثر ويسهل منالها حتى تبتذل فيعف عنها الناس . فتاة اليوم هى التى تعرف لنفسها كرامة ومنزلة ، وتعرف تماماً أنها إن هى حفظتهما حفظهما لها الناس صاغرين ، وإن داسوهما فلا تلومَنَّ إلا نفسها التى ارتضت دوسهما أو مهدت له .

فتاة اليوم تعرف عن الحياة مالم تعرفه فتاة الأمس ؛ لذلك آراؤهما تختلف ، ونظراتهما تختلف ، وأعمالهما تختلف . السعادة التى كانت تقنع بها فتاة الأمس تراها فتاة اليوم الحقة سعادة زائفة لا تستحق تقديراً ، بله الرضى . ولكنى لا أحدثك عن فتاة اليوم التى تستحق الاحترام والاعجاب ، لأنى ما جئت إليك محدِّثة وإنما جئت سامعة ، هذا فوق ما أشعر به من تعب خفيف .

قالت : كل هذا يا ابنتى من كثرة ما تقرئين وتفكرين . طاوعينى واسمعى منى واتركى هذه الكتب ، وانظرى أى تغيير تحسينه فى صحتك . وهذا داء جديد لم نكن نعرفه ؛ مرض القراءة كفانا الله شره . رحم الله زماننا يوم كنت لاأترك لبناتى وقتاً يقرأن فيه أبداً . كنت أقول إن الفراغ يجلب أفكار السوء . وكانت القراءة عندى فراغاً . رحم الله يا ابنتى وقتنا فقد كنت لا أسمح لبناتى أن يقرأن كتاباً لم يقرأه والدهن أو أخوهن الأكبر

من قبل . أين أنتن اليوم مما كنا فيه ، وهذه المكاتب مفتوحة أمامكن يمكنكن أن تقرأن أى كتاب . أين أنتن منا وها أنت تعرفين ما لم أعرف بل مالا أمل لى فى أن أعرف .

قلت : عفواً جدتى . إن وقتكن كان كله مشغولاً . كنتن تعنين بشؤون الدار عناية تستغرق كل وقتكن . أما اليوم فالمخترعات الحديثة سهلت هذا العمل تسهيلاً كبيراً . والمحترفون والمحترفات قاموا عنا بما كنتن ترين عاراً أن يقوم لكنَّ به الغير . هذا كعك العيد مثلاً الذى ترين إلى اليوم أنه لابد أن يصنع فى البيت ، انظرى كم من البيوت تشتريه من الخارج ، وكم تتسع وتتفنن محال الحلوى فى إتقانه بعد أن لم تكن تصنعه أبداً !

قالت : حقاً يا ابنتى كم من الوقت كانت تأخذ منا هذه الأشياء . كان كعك العيد يأخذ منا أسبوعاً أو أكثر . فهذا اليوم نجتمع كلنا فى دار احدانا نصنع لها

كعكها كله ، وفى الغد عند الأخرى نصنع لها كعكها وهكذا حتى يأتى يوم العيد .

— كم كانت هذه الجلسات حلوة . جلسات لا كلفة فيها ولا تصنع ، جلسات أهلية كلها صفاء وكلها سرور . جلسات ليتكن تستطعن الاستمتاع بمثلها . لا يا ابنتى كنا أسعد حالاً فى صداقتنا . قارنى بين جلستنا هذه وقد لبسنا كلنا أقل ملابسنا قيمة لأنا نعرف أنها معرضة للاتساخ ، وقد جلسنا كلنا أخوات ، إن تألمت واحدة تألمنا لها كلنا وأشرنا عليها بما يفرج ألمها ، بل كثيراً ما نساعدها على إزالة أسباب الألم ، وإذا ضحكت واحدة ضحكنا كلنا معها . قارنى بين مجالسنا هذه ومجالسكن وما يملؤها من تصنع ورياء . كان الأغلب على جلساتنا نحن الضحك والسرور والغالب على مجالسكن السخرية وتحقير الغير .

— هـذه أيام الأعياد ، وكانت لنا أيام الأفراح

أيضاً . فاذا كانت بنت صديقة أو أختها ستتزوج ، فان هذا يأخذ من وقتنا شهراً كاملاً أو يزيد . كنا نذهب فى بيت العروس لنخيط لها ثيابها وكل ما سيحتاج إليه منزلها . لم نكن نعرف الخياطات ، ولم يكن لهن وجود أيامنا إلا قليلاً . وكنا نخيط لأنفسنا ملابس لهذا الفرح ، فاذا أعجبنا قماش يا ابنتى لم نكن نخفيه أو نخفى ثمنه ومحله عن صديقاتنا كما تفعل أكثر فتيات اليوم المجنونات بشىء اسمه « الجديد » أو « الذى لم يسبق له مثيل » . كنا نأخذ القماش نعرضه على صديقاتنا ونبين لهن مميزاته ، فان أعجب واحدة منهن اشترينا لها مثله . حتى شكل الملابس نفسها ، إن أعجبنا شكل عرضه بعضنا على بعض . وربما ذهبنا إلى نفس الدعوة ، ونحن اثنتان أو ثلاث بنفس اللباس من نفس القماش ، وعلى نفس الشكل ، لا نرى فى ذلك أثراً من القبح ولا نشعر إزاءه بأقل ضيق .

فان لم يكن عيد يا ابنتى أو فرح ، وقلما كانت تخلو أيامنا منهما ، اجتمعنا اجتماعاتنا العادية ، يوماً عند هذه والآخر عند تلك . وكثيراً ما كنا نجتمع فى منزلنا القديم لأتفه المناسبات . كانت صديقاتى يجتمعن عندى كل أسبوع لنستحم معاً فى حمام بيتنا القديم . أتذكرين يا ابنتى هذا الحمام الرخامى الواسع العريض ؟ أتذكرين أقسامه وأحواضه ومكانه من بيتنا القديم ؟

قلت : إن فى ذاكرتى صورة منه عجيبة غريبة ، قد دخلته مرة واحدة على ما أذكر ، ومع هذا فان صورته فى خيالى صورة غريبة فذة ، لا أذكرها إلا شعرت بشىء من الرهبة والخوف .

قالت جدتى : فى هذا الحمام يا ابنتى كنا نجتمع جميعاً أنا وصديقاتى كل أسبوع نستحم فيه معاً . كم شهد هذا الحمام من لعبنا وجرينا . كم رددت جدرانه أصواتنا وضحكاتنا . إن هذا الحمام يا ابنتى ملئ بالذكريات العِذاب

ملى بالصحف الجميلة ، صحف زماننا الذى لن يعود . لا أذكره إلا ذكرت أسعد أيام حياتى وألذها . كل حزن كان يذوب فيه ، وكل هَمّ كنا نتركه عند بابه . لا نعرف داخله إلا الضحك والبشر .

— كانت هذه تساعد تلك على تنظيف ظهرها أو تمشيط شعرها . وكانت شعورنا حلوة طويلة تغطى أجسادنا إلى النصف أو نحوه . كانت جمالَنا لم نعمد إليها يوماً بمقص تقصها وغيتها . كانت قطعاً من أجسادنا نحرص عليها ونعنى بها كل العناية . وهذا ما بقى لى من شعرى الطويل الجميل .

وأمسكت جدتى بشعرها فاذا هو طويل ناعم كستانى ، كانت به آثار جمال عفت معالمه ، وكانت به آثار عناية ما زالت توليها إياه رغم كبرها ووهنها .

قلت : جدتى ، وما السر فى أنى أخاف صورة هذا الحمام؟

قالت : يا ابنتى إن عصر هـذا الحمام الجميل لم يدم

طويلا . فقد ماتت صديقاتى واحدة إثر واحدة ، ولقد مات جدك وأغلب أزواج صديقاتى . فكانت لموتهم رنة حزن عميقة رجَّت كياننا رجاً وبدلت حياتنا تبديلاً . أصبحنا لا نهتم كثيراً بمرح الحياة ولهوها . لبسنا الجد والحزن يا ابنتى فلم نعد نضحك إلا قليلاً . وكان هذا الحمام أول ما شعر بما طرأ على حياتنا من تبديل . لم نعد إليه ولم ندخله . أقفل الحمام وأصبح مقفراً خاوياً ، لا تجرى مياهه ولا تردد جدرانه صوت إنسان . وأصابه يا ابنتى ما يصيب كل شىء مهجور : سكنته العفاريت والأطياف ، سكنته الأرواح بعد أن كانت تسكنه الأحياء . ما دخل خادم ينظفه بعد ما هجرناه إلا جاءنى يرجونى أن أعفيه من عمله هذا ، فاذا ماقلت له : يابنى إن الذى تحسه أوهام لا صحة لها ، قال : « ياسيدتى مرينى أن أقوم لك بما تريدين إلا تنظيف هذا الحمام » . وعبثاً حاولت معهم وعبثاً غيّرتهم ، فما يكاد يأتى الخادم الجديد ويلبث أياماً حتى يعرف من

سائر الخدم قصة هذا الحمام ، فلا يقربه ولا ينظفه بحال .

— ومن حسن حظى يا ابنتى أن الحمام كما قد تتذكرين كان منزوياً شيئاً ما فى الدور الأسفل من المنزل ، فساعد هذا على أن نتجنبه وأن نغفل أمره .

— ومرت أعوام وأعوام والحمام مهجور من الأحياء مسكون بالأرواح حتى جاءت لك خادمك « رحمة » . وكانت « رحمة » هذه ريفية لم تخدم إلا فى بيوت الريف . وما أن وصلت إلى المنزل حتى سمعت هى الأخرى قصة الحمام .

— وذات ليلة بينما كنا جالسين نسمر ، وقد تقدم بنا الليل ، إذ عَدَت نحوى « رحمة » تقول : « سيدتى سيدتى ، اخفينى عندك ! » كانت المسكينة ترتعد فرقاً وقد ابيض وجهها ولمعت عيناها من الخوف . كانت ترتعش باردة اليدين وهى لا تشعر بما تأتيه من حركات . وكانت دموعها جامدة فى عينيها تزيدهما بريقاً ولمعاناً .

— فقلت لها : يا ابنتى ما بك ؟ ما بك يا رحمة ؟ وأخذتُ أخفف عن المسكينة ما تحسه وأهوّن عليها أمر ما تفزع منه . واجتمع الخدم وأصحاب المنزل حولها . منهم من كان نائماً فاستيقظ ، ومنهم من كان يستعد للنوم فتركه . وأخيراً استطاعت « رحمة » أن تنطق فقالت : « سيدتى ، إن عفريتة خرجت لى من الحمام ونادتنى بصوت خافت مخشرج : « يا رحمة يا رحمة » وما سمعت هذا الصوت يا سيدتى حتى عدوت على السلم أفر منها . وأنا أحس أن رجلىَّ انفصلتا عنى . فاذا نور خافت باهت ، ولكنه ظاهر ، وسط هذا الظلام الدامس ، تبعنى ورائى على السلم . وإذا الصوت يعود ثانية : « مالك خائفة يا رحمة ؟ رحمة ! رحمة ! » ولم ألتفت ورائى من شدة الخوف ، وإنما عدوت إليك هنا ياسيدتى ؛ ولست أعرف أين ذهبت تلك الروح » .

— منذ تلك الليلة يا ابنتى والخدم لا يقربون الحمام ليلاً

بحال . منذ تلك الليلة وكل خادم تمر بالحمام ليلاً تعود إلى النور خائفة زاعمة أنها سمعت صوتاً يناديها . وأن الصوت صوت امرأة محشرج كأنما صاحبه يتألم من شيء .

— وكنت يا ابنتي أريد أن أتحقق ما يقولون ، فاذا ما قوى عزمي يوماً أحاط بي خدمي ينهونني عن هذا ويستحلفونني ألاَّ أذهب ناحية الحمام ليلاً . ولا أكذبك يا ابنتي ، فكثيراً ما كان يعوقني خوف واضطراب عصبي عن أن أجرب الأمر بنفسي !

— وكان أولادي ينهرون الخدم ويلومونهم على هذه الغفلة وهذا الجهل . وكان منهم من ذهب بنفسه ناحية الحمام ليلاً ليثبت لهم أن ليس ثمت شيء . ولكن حجتهم كانت دائماً أن العفريتة لا تظهر إلا إذا كان الشخص وحده ، وأنها تخاف النور كسائر العفاريت فلا تظهر فيه .

— وذات ليلة جاءتني « رحمة » خائفة ، تبكي من

الخوف وهى تقول : « سيدتى ، لقد كذبنى سيدى وكذبتمونى كلكم يوم حدثتكم عن العفريتة التى تئن فى الحمام . فتعالَىْ إلى السلم واسمعى بنفسك أنينها . سيدتى ، لا أستطيع أن أمكث فى البيت بعد اليوم ، وإن كنت لا أحب أن أفارقكم بعد هذه العشرة » .

— وقمت يا ابنتى خائفة أستر خوفى ، فيخفى حيناً ويظهر حيناً آخر . وعلى حافة السلم وقفت أنصت إلى جهة الحمام ، فاذا صوت يئن ويتألم ، صوت ليس آدميًّا ، وإنما كثير الشبه به ؛ يئن ويتألم طوراً خافتًا وطوراً عاليًا . وكان الصوت فيما يظهر ينبعث من أبعد مكان فى الحمام ، فتردد جدران الحمام الصوت ، ويردده صحن الدار حيث السلم ، فيصل إلى آذاننا ضعيفًا غريبًا . ولكنه صوت أنين دون شك .

— وتمثلت صوت صديقاتى واحدة واحدة ، فاذا هو صوت إحداهن . صوت عائشة كما كانت تئن ساعة ألمها

من مرضها الأخير الذى ماتت به . ولم أطق سماع أكثر مما سمعت . وقد كنت خائفة جداً . فأنرنا الأنوار ، فاذا الصوت ينبعث من الحمام كما كان لا يخفيه إلا أصواتنا .

— ولما جاء ولدى الكبير قلت له : تعال معى . وأسمعته الصوت . أنصت أولاً وأنكر ثانيًا ، ولكنه آمن أخيراً وأحس الخوف والرهبة . قلت : يا بنى هيا بنا إلى الحمام ، ومعنا مصباح نكشف الأمر . قلتها يا ابنتى وأنا لا أقصدها ، وأنا عازمة على ألا أنفذها . وإنما قلتها حتى أُظهر شجاعة أمام ولدى . وكنت أدعو الله فى سرى ألا يقبل عرضى . وأخيراً يا ابنتى قال لى : وكأنما انتشلنى من يم كدت أغرق فى مياهه : « لا يا أماه ليس من الحكمة أن نفعل هذا الآن ، وإنما غداً صباحًا سننظف هذا الحمام وسنبحث عن مصدر هذا الصوت » . قلت : كما تريد يا بنى . وكأنما الأرواح ستظهر فى النهار يا ابنتى أو كأنما الباحث عن العفاريت يمكن أن يعثر عليها .

— وفى الغد دخل ولدى وأنا وراءه والخدم من وراءنا فاذ االكلبة «عزيزة» وأمامها ستة أجراء ولدتهم أمس داخل الحمام المهجور الذى لم يسكنه بعدنا إلا الأطياف والأرواح .

— لم ينف هذا من أذهان الخدم أن الحمام مسكون وأن الأرواح ترقص وتغنى وتنادى وتئن وتعيش فيه عيشة دائمة . وظلت سيرة الحمام وناحية الحمام بالليل غيرهما بالنهار ، ففى النهار يقربونه وينظفونه ويجلسون فيه ، فاذا ما غربت الشمس تركوه للعفاريت تظهر وتفعل فيه ما تريد .

ووقفت جدتى فى حديثها وانصتت وقد سمعنا حركة أقدام آتية ، ونظرت جدتى نظرة من يرتاب فى مصدر هذا الصوت . فراقبتها قليلاً ولكنى استطعت أن أخلص بسرعة من جو العفاريت الذى خلقه حديث جدتى وقلت لها ضاحكة :

ماذا ؟ عفاريت جديدة !

قالت : يا ابنتى لا سمح الله . كفى الله هذا المنزل شر الحزن الذى يؤثر فى أعصاب أهله فيرهف حسهم لسماع أصوات العفاريت وحركاتهم . لم تعرف العفاريت طريقها إلى منزلنا سواء أكان صدقاً أم كذباً إلا بعد أن انطفأ سراج البيت ، بعد أن مات زوجى . كان صوته يطرد كل وحشة وينفى كل إحساس نحسه نحو المهجور من الأشياء . كان صوته يملأ البيت حياة ، فطوراً مرحاً وطوراً غضباً ولكنه الحياة على كل حال ، لا الموت . منذ مات زوجى ...

وأردت أن أداعب جدتى قلت : ولم لم تتزوجى ثانية ياجدتى ؟ إن زوجك مات وأنت فى شبابك .

فالتفتت إلىَّ وكأنما كنت قد طعنتها بكلماتى . وكأنما كانت ستندفع فى لومى ، لكنها تداركت نفسها وقد فهمت أنى إنما أردت مداعبتها فاخطأت السبيل ، وقالت فى لهجة مؤثرة حزينة :

— لا يا ابنتى ، ولا فى الدعابة أحب لك أن تقربى مثل هـذا الحديث . أنا واثقة أنك تقـدرين ما عملت . بل أنا واثقة أنك لو كنت مكانى ما سمحت لك نفسك بأن تفعلى أقل ممـا فعلت .

قلت آسفة نادمة : ما أردت يا جدتى إلا مداعبة بريئة ، فعفواً إن كنت قد آذيت عاطفة من عواطفك ، فأنا أحرص ما أكون على ألاَّ أمسَّ عاطفتك ، ولو فى دعابة .

وكأنما أسفت جدتى فقالت :

— أنا أعرَف يا ابنتى بمـا تحسين ، وها أنا أقص عليك شيئاً طريفاً فى هـذا الصدد . عسى أن تكون قصتى هذه أحسن ما نختم به حديثنا الليلة ، فقـد طال الحديث وتنوع ، وتشتت أفكارنا فيه . فأصغى إلىَّ :

— كان زوجى ضابطاً كبيراً فى الجيش ، سافر مع أكثر أصدقائه ، وهم أزواج صديقاتى ، إلى حرب

الحبشة . وكان وداعه لنا يوم السفر مؤثراً بالغاً فى التأثير ، كانما كان يحس شيئاً مما قد قدر له . وكيف لا يحس الجندى المحارب أن حياته فى الموقعة معلقة بأوهى سبب ؟ كم كان كريماً وهو يوصى أبناءه وما يزيد عمر أكبرهم عن الثامنة عشرة أن يطيعونى وأن يرعونى فى غيابه ! سافَر يا ابنتى ، فكانت مهمتى شاقة فى غيابه . ففوق القلق الذى كنت أحسه عليه ، وفوق الخوف الذى كنت أخافه مما يحتمل أن يُلِم به . فوق كل هذا كان أطفالى صغيرى السن ، وكانوا يحبون كثرة اللعب وكثرة التدمير . وكم كان اسماعيل شيطاناً فى هذه المدة ! كان كثير اللعب كثير الائتلاف . ولكن ولدى الكبير كان أكثرهم هدوءاً وأوفرهم عقلاً . كثيراً ما كان ينهى إخوته عما هم فيه . فكان منظره هذه يؤلمنى جداً . كم كان يؤثر فى قوله لهم : إن أباهم يجب أن يعود ليراهم أحسن مما كانوا عليه . كم كان حَليما معهم ، وكم كان شديد الأثر

فى تهدئتى كلما هممت أن أقسو على أحدهم فى عقاب ! كأنما المسكين قد أحس أن عبء هؤلاء ملقى على عاتقه هو . كأنما كان يحس سلفاً بما سيلقيه عليه الدهر من أعباء ثقال . كأنما قد أحس أن تربية هؤلاء ، وشق الطريق لهم فى الحياة من واجباته هو فى غياب أبيه .

— وازدادت هواجسى على جدك ، وبدأت أحس أن شيئاً أصاب الجيش ، اضطره إلى هذه الغيبة . إن الحرب هائلة يا ابنتى فى كل عصر وفى كل مكان ، ولكنها كانت أكثر أهوالاً ومشاقَّ إذ ذاك . إن الاختراعات الحديثة إن كانت قد أكسبت القوى قوة ، وإن كانت قد سهلت سبل الفتك والدمار ، فانها دون شك سهلت الموت على أصحابه . أصبح الموت هيناً يسيراً لا يكلف إلا عذاب دقيقة أو جزء من دقيقة . زادوا فى قوة الموت ، فزادوا عدد الضحايا ، ولكنهم لم يزيدوا ألماً على من قُدِّر عليه الموت .

— أما قديماً ، فكان الجندى يذوق الموت قليلا قليلا . يسير وسط الصحارى القفرة على ظهر حصانه أو راجلاً . فيتألم من مشاق الطريق وحرّه . كان العطش يفتك بهم حتى يضطروا إلى مص الطين ليستخرجوا منه ماءً ، وأخيراً يلقى الجندى العدو ، فقلما تصيبه طعنة تدفع إليه الموت عاجلاً ، وإنما هى طعنة تفتح عليه أبواب الآلام على اختلافها ، أبواب آلام آخرها الموت غالباً ، ولكنه الموت بعد طول العذاب : يحس آلام الطعنة أياماً بل أسابيع ، ثم آلام الخوف من الموت ، ثم آلام اليأس والصبر اليائس الممض . وأخيراً يأتيه الموت متهادياً متدللاً بعد أن يكون قد جَسَّمَ فيه كل الفرج ، بعد أن طال انتظاره له ليريحه من يأسه وحزنه وألمه .

— كنت أقدر كل آلام الموت وأهواله ، فأشفق على زوجى كل الشفقة . ثم أتصور حالى من بعده ، وأولادى كلهم ما يزالون صغاراً يحتاجون إلى إرشاده

فى الحياة ، فيزداد إشفاقى ويحز الألم فى نفسى حَزًّا .

— ولا أطيل عليك ، فقد نفذ المقدور ودق ناقوس الموت فى حياتى وحياة أبنائى ، فغير كل آمالنا ، وصبغ كل أحلامنا بصبغة الموت اليائسة الحزينة . جاءنى خبر موت زوجى ، فلا أحاول أن أصف لك حزنى وآلامى ، وإنما يكفى أن تعرفى أنه كان الشخص الوحيد الذى كنت أعرفه وأعتمد عليه فى حياتى . لم يكن لى أخ ولا عم ولا خال ولا أب . كان هو كل أقاربى ، وكان أبا أبنائى ، فليس لهم من بعده غيرى . علىَّ أنا وحدى وقع عبء تنشئة هؤلاء الصغار ، وإرشاد الكبار ومساعدتهم على شق طريقهم فى الحياة . ولست أصف لك يا ابنتى وقع هذا الخبر فى نفوس أطفالى وأولادى ، فموت عميد الأسرة ليس من الخطوب المستهانة . هو الخطب الذى يتجدد الحزن من أجله كل حين . كل أمر كان يكون له فيه شأن ، كل عبء كان يكفينا حمله ، كل عمل كان يقوم

لنا به ، كل صغيرة وكل كبيرة تذكرنا به كل يوم مدى الحياة .

— وكان يسكن جوارنا رجل متوسط السن ، صديق لزوجى ، بل من أشد أصدقائه صلة به . ما كاد يسمع بموت جدك حتى جاءنا يعزينا . فلقى أولادى وقبلهم ، وانهمرت دموعه فاختلطت بدموعهم . وكان هذا الرجل كريماً خيِّراً طيب القلب . فجعلها عادة من عاداته أن يمر علينا كلما استطاع ؛ يسألنا حاجة يقضيها لنا ، ويأتى أطفالى بلعب أو فاكهة أو أى شىء يكونون قد طلبوه منه . وما كان يصل إلى باب المنزل حتى يرسل إلىَّ الخادم بأنه أتى ، وأنه يسلم علىَّ ويسألنى أهناك خدمة يستطيع أن يقوم بها من أجلى ، أو من أجل أولادى ؛ وكنت أستثقل أن أذكر له كل طلباتى ، ولا أسأله إلا ما أضطر إليه فيه اضطراراً . ولكن أولادى كثيراً ما كانوا يطلبون منه أشياء يقضيها لهم ، وهو مرتاح

البال راضى القلب ، لأنه كان يشعر أنه يؤدى بذلك حق الوفاء لصديقه الراحل .

ولكن يا ابنتى جاءنى يوماً ولدى ابراهيم ومعه اسماعيل وقالا لى : « يا أماه ان الرجل صديق والدنا سألنا أن نعرض عليك امراً » . قلت : وما هو ؟ فارتبك الكبير ولكن اسماعيل أخذ يضحك ويأتى بحركات من يريد أن يخفى ضحكه . قال ولدى الكبير : يا أماه ، إنه يعرض عليك أن تكونى له زوجة ، ففى ذلك راحة لك ولأولادك .

— وصعد الدم حاراً فى وجهى ورأسى فالهبهما . وأخذت أسب الرجل سباً شديداً واندفعت نحو حجرة زوجى التى ظلت مقفلة منذ وفاته . ومن صندوق كبير كنت قد وضعت فيه كل ملابس زوجى الراحل أخرجت سوطاً سودانياً كان يحمله المرحوم ، وأسرعت بالسوط أريد أن أنزل إلى صديق زوجى أضربه به ضربة تذكره ما هو الوفاء للزوج !

— ورآنى اسماعيل الشيطان ، وأنا أخرج السوط ، فعرف اللعين قصدى . وعدا نحو الصديق يقول له : يا عم ، أسرع ، اهرب ، إن أمى آتية لتضربك بسوط المرحوم أبى . ويصف لى ابراهيم ولدى كيف بُهِت الرجل ودُهِش ، وكيف فرّ هارباً قبل أن أدركه .

— كان يرى فى طلبه شيئاً عادياً ، فما دام أولادى محتاجين إلى من يرعاهم ، وما دمت وحيدة فى هذا البلد محتاجة إلى من يقوم لى بأعمالى الخارجية ، فمن المعقول أن يتقدم هو إلينا يعرض علينا أن يقوم بكل هذه الأعمال ، وأن يكون هذا واجباً عليه بزواجه منى .

— كم سخطت على هذا الرجل وكم لعنته . وظللت مغيظة منه أياماً بل أسابيع . ومن يومها يا ابنتى أرسلت إليه ألا يخطو عتبة دارى أبداً . لقد ظن الرجل أن احتياجى إلى من يقوم بأعمالى وأعمال أولادى يبرر أن أخون ذكرى زوجى . زوجى الذى مات ميتة مخيفة

فى سبيل الوطن بل فى ميدان الحرب ، غريباً عن وطنه بعيداً عن أهله . زوجى الذى عاش شريفًا ومات مجيداً ، وكان مخلصًا لى ولأولادى كل الاخلاص ، وكان محبًّا لى ولهم كل الحب ، وكان يحترمنى أشد احترام . لا يا ابنتى ، لو كان زوجى أقل مما كان ما تزوجت من بعده ، فكيف به وهو ما وصفت . ثم أولادى ، أليس لهؤلاء حق علىّ ؟ فكيف أتركهم لأعنى بزوج جديد !

— ولكن اسماعيل ابنى أبى إلا أن يجعل من قصة طلب الزواج هذه نكتة مضحكة يقصها على صديقاتى . فما يكاد اللعين يصل بيت إحداهن حتى يقول لها : « أتعرفين ياخالة ماصنعت أمى بفلان ؟ » فتقول : « كلا » . يقول : « لقد همت أن تضربه بسوط المرحوم أبى ، لأنه طلب أن يتزوجها » . ويتفنن اسماعيل فى الوصف ، وصفى أنا ثائرة هائجة ، ووصف الرجل دهشًا مبهوتًا . فتضحك الصديقة ويضحك كل من معها .

— وكانت صديقاتى يلقينى بعدها فيلمننى على هذا العمل ويقلن لى : « أما كنت تستطيعين أن ترديه برفق؟ » فأقول لهن : كلا ، أنا لا أعرف معنى للرفق وأنا ثائرة ، ولا أفهم أن ذكرى المرحوم زوجى تمس أو تخدش ولا أثور .

— وكرت الأيام سريعة فى دورتها كأنما عصًا تلهبها فتعدو لا تنظر إلا إلى الأمام ؛ فاذا صديقاتى كلهن مثلى أرامل لم تتزوج منهن واحدة بعد موت زوجها فى حرب الحبشة . وكن يتندَّرن ويقلن لى : « كله منك أنت ، فلولا ما صنعت فى فلان لما ابتعد الرجال عنا ، ولا نفروا منا . لم يطلبنا أحد لأنهم ظنوا أننا سنضربهم بالكرباج السودانى ، كما هممت أن تفعلى أنت » . فكنت أقول للقائلة : كلا ، خيراً فعلت ، إن العمر واحد يجب أن يعاش على أكمل وجه ، أمامك أطفالك حقوقهم عليك أولى من حقوق زوج جديد . لا ، خيراً فعلت ، وسيذكر لك أبناؤك يومًا أنك وضعت واجبك نحوهم فوق كل شىء .

٥

كانت القبيلة هادئة آمنة سائرة فى أعمالها العادية . فاذا واحد منها يعدو إليها قائلاً فى خوف وهلع : « العدو » . وأنصت أهل القبيلة ، فاذا دبيب خيل العدو يكاد يكون مسموعاً . وكانت أخبار وصلت القبيلة عن عتو هذا العدو وجبروته ، فلم تر من العقل أن تصبر لتحاربه ، وتصده عن وطنها . وإنما رأت أن الأبق لها والأسلم أن تحزم أمتعتها فى سرعة ، وأن تهاجر هذا الوطن الذى آواها زمناً ، كارهة هذه الهجرة ، تحس لها ألماً دفيناً بليغًا . وكانت أصوات العدو تقترب حيناً فحيناً . وكانت خيل القبيلة تعدو بما عليها نحو الجنوب إلى الغرب .

ووقف شيخ القبيلة يؤدى أمانة المشيخة إلى آخر لحظة من لحظات الأمن . يدفع هذا ويحث ذاك ، حتى يتسنى له أن يسير فى الخلف . فان شيخ القبيلة حقًا يجب أن يواجه عدو قبيلته من حيث أتى .

وغربت الشمس ، وتركت وراءها شعاعًا من النور يشع فى الأفق ، كأنما هو ذكرى تبعثها إلى أهل القبيلة . ذكرى يوم من أيام وطنهم مشمس جميل . وكان يومًا فذاً بين أيام هذه القبيلة ، التى لم تكن لترى الشمس إلا نادراً ، ولكنه لم يختم إلا بحادث فذ أيضًا ، هو قدوم العدو الجبار .

وفى الليل القارس البرد ، وقد اشتد بالقبيلة الجهد والتعب ، وقفت قليلاً من سيرها الجنوبى السريع لتتفقد أفرادها ، فاذا منهم من ضل ، وإذا منهم من قتل برصاص العدو . وإذا هذه الأم البائسة التى تضم ابنتها إلى صدرها . هذه الأم التى عهد بها شيخ القبيلة إلى فارس

قوى ليهرب بها إلى المدينة . إذا هـذه الأم تسأل عن الشيخ زوجها ، فيخبرها غير واحد أنه قتـل برصاص العدو . وأنه صاح بهم ، وهو يجاهد الموت : « أن جدوا فى سيركم فلا نجاة لكم إن لم تبلغوا المدينة قبل الفجر » . وهكذا أدى الشيخ واجبه إلى آخر لحظة من لحظات الحياة .

وما سمع الفرسان قول بعضهم ، حتى شدوا رحالهم وركبوا أفراسهم ، واستأنفوا سيرهم السريع المخيف . لا يعبأون بشىء حتى ولا بتلك الأم ، التى مازالت تتوسل إليهم أن يتركوها تعود تبحث عن جسم زوجها لتموت إلى جنبه .

وبدأت أجراس الخيل تدق دقاتهـا من جديد ، سريعة مضطربة خاطفة ، وبدأت قلوب الهاربين المهاجرين الجائعين تدق دقات لا تقل عن دقات الأجراس اضطرابًا وعنفًا وسرعة . وما كاد نور الفجر يخلط بسـواد

الليل بياضًا ، حتى لمحوا أبواب المدينة ، فارتموا إزاءها ، منهوكين متعبين جائعين ، لا يتصلون بالحياة إلا بأقل الأسباب وأوهاها .

وفى الصباح قام أهل المدينة من رقاد سعيد هنئ مريح ، ليروا هـذه القبيلة الجائعة التعبة ، منبثة فى شوارعهم تطلب الطعام ولو بأعز ما يمكن أن يبذله الانسان ، تطلب الطعام ثمنًا لفلذات الأكباد .

وكانت هـذه الأم بعـد أن قتل زوجها ، وحيدة بائسة ، تضم فتاتها الصغيرة لم تبلغ بعدُ الرابعة إلى صدرها الذى لم يقو الحزن على أن يلهبه لضعف هذا الجسم ، وقلة ما يسرى فيه من دم الحياة . وكانت دموع الأم تنحدر من عينها على جسم هذه الصغيرة الباكية ، فتؤلف منظراً مؤلمًا غاية الألم . كانت الأم جائعة ، وكانت الطفلة على وشك الموت ، وليس لديهما ما يبيعان أو يستبدلان به طعامًا . والجوع عاتٍ جبار يخول لصاحبه أى عمل ،

بل أى جريمة . ولكنه لم يستطع أن يقهر قلب تلك الأم ، فلم تستطع بعد أن تنزل عن ابنتها ثمنًا لطعام تسد به حاجة بطنها الثائر .

وطافت الأم وابنتها فى الشوارع ، بطيئة الخطى واهية تعبة ، تحاول أن تسأل الصدقة من المارين ، فيخونها لسانها ولا تقوى على مالم تتعوده نفسها من قبل .

وعلى باب قصر عظيم وقفت تنظر إليه . كأنما تساءل ربها السِرَّ فى أنها هى وابنتها تبكيان كسرة خبز فلا تجدانها ؛ بينما صاحبة هذا القصر تنعم بكل مافى الدنيا من نعيم . وفُتحت نافذة القصر ، وأطلت منها السيدة صاحبتُه ، جميلة بدينة ، عليها آثار النعمة واضحة جلية ، وآثار الاطمئنان والرضى أوضح وأبين . ولمحت تلك البائسة تجر الخطى ، حاملة عبأها الخفيف المولول الباكى . فأرسلت خادمها ينادى تلك المهاجرة .

وكان منظر المهاجرين الجائعين فى عاصمة

الأتراك ، منظراً شائعًا فى هذا العصر . ولقد سمعت السيدة بوصول قبيلة طاردها أعداؤها ، فهاجرت من بقعتها حتى وصلت المدينة ، تعرض بناتها وأبنائها فى سوق الرقيق ثمنًا للحياة . وفهمت السيدة أن هذه لا بد أن تكون مهاجرة ضلت السبيل إلى سوق الرقيق .

ولما رأت السيدة هذا العبء الصغير على كتف المهاجرة ، قالت لها فى لهفة كأنما وجدت طلبتها : « أهذه ابنتك ؟ » قالت : « نعم » قالت : « أتبيعينها ؟ » قالت : « كلا » .

ولكن الصغيرة ذات العينين العسليتين الواسعتين المحدقتين من الضعف ، ذات الشعر الكستانى الناعم الطويل ، ذات الأنف الدقيق والفم الصغير أثارت شيئًا غير قليل من العطف والحنو الشديدين فى قلب تلك السيدة العقيم .

فقالت السيدة : « انك جائعة فقيرة مهاجرة قد يلحقك الموت ، فتعذّب ابنتك الصغيرة أمرّ عذاب ،

فما ضرك لو بعتها فأنقذت حياتك وحياتها . هل أنت أول من يضطرها الجوع الجبار إلى بيع فلذة كبدها ؟ لست الأولى وثق لن تكونى الأخيرة » .

قالت البائسة : « عفواً سيدتى ، لَلْموتُ جوعا أحب إلىَّ من أن أقبض ثمناً لابنتى ، لن تكون ابنتى أمَة أو خادماً ليشبع بطنى وبطنها . لا لن أفرض على نفسى ولا على ابنتى ذلاً أكثر مما فرضت علينا الحياة » .

قالت صاحبة القصر فى تأثر عميق : « لن تكون ابنتك أمة ، ستكون سيدة ، سيدة هذا القصر الواسع العظيم . ستكون ابنتى أنا لأنى عقيم أشتاق إلى الأطفال أمرّ اشتياق وآلمه » . وبكت السيدة وهى تقول : « لن أحرمك ابنتك ، وإنما كل ما أطلبه منك هو أن أشاركك فيها . ولن تفيدى أنت من هذه الشركة ؛ فانك كما أرى تعفين عن أن تفيدى من ابنتك شيئاً ، وإنما التى ستفيد هى ابنتك . لا تكونى سبباً فى موتها ، إنها

صغيرة بريئة، ولئن ملكْتِ حق نفسك فأنت لا تملكين حقها. هـذه فرصة قد لا تسنح لها فى حياتها، أن تُربى وأن تتعلم وأن تهذب وأن تكون كابنتى أنا. فكرى فى الأمر قليلا...»

ولكن بكاء الطفلة وصياحها: «أماه إنى جائعة! إنى جائعة!» أوقف كل تفكير ولم يبق للأم المسكينة إلا أن تسلّم. فقالت فى صوت تخنقه العبرات: «ولكن سيدتى ستسمحين لى أن أراها كل يوم، أو كلما زاد بى الحنين؟». قالت صاحبة القصر الكريمة: «البيت بيتك ترينها وقتما تشائين». وهمت الأم بأن ترحل. فقالت لها صاحبة القصر: «وإلى أين»؟ والآن فقط فكرت الأم، وإلى أين تسير؟ ليس لها مكان تأوى إليه، فقد جابت طرق العاصمة خلال هذين اليومين فلم تجد أى مأوى. واستحلفتها صاحبة القصر أن تظل عندها ضيفة حتى تجد لهذا السؤال جواباً: حتى تعرف إلى أين تسير.

نالت الأم من إكرام السيدة الكريمة ما أنساها بعض آلام الذل المفاجىء الذى طرأ عليها ، وبعض آلام الطريق الشاق السريع بين الجبال ليلاً ، والطريق الهادىء الحزين فى شوارع العاصمة ، وبعض آلامها وهى شريدة جائعة خائرة القوى محطمة الأمل . ولكن مثل هذه الآثار لاتمحى هكذا سريعاً ؛ فسرعان ما أحست الأم آلاما لم تمهلها أياماً حتى أودت بحياتها .

ظلت الصغيرة فى القصر مكرمة معززة ، تبذل السيدة الكريمة من مالها ومن وقتها ومن حبها وعنايتها كل مايمكن أن تبذل أمٌ حقاً فى سبيل ابنتها . فكبرت الصغيرة وإذا هى شابة جميلة مثقفة متعلمة بقدر ما كانت فتيات عصرها مثقفات متعلمات . تجيد العزف على آلة أو آلتين من آلات الموسيقى ، وتعرف آداب الاجتماعات على النحو التركى معرفة تامة متقنة حتى لتكاد تكون طبيعة ثانية لها من كثرة ما دربت عليها وما مارستها .

وشاء القدر أن يغضب السلطان على صاحب القصر زوج السيدة الكريمة، فأمر بأن يُنفى هو وأسرته وأن تباع كل ممتلكاته حتى إماؤه وعبيده. وصعب على السيدة أن تبيع الفتاة بعد أن أحبتها وبعد أن أنفقت فى سبيل تعليمها وتأديبها ما أنفقت. ولكن أمر السلطان جبار يجب أن يطاع، ثم هى لا تستطيع أخذ الفتاة معها وهى مهاجرة هى وزوجها بلا مال ولا زاد. وفكرت السيدة طويلاً فى أمر الفتاة، وأخيراً رأت أنها لما لها من جمال، وما هى عليه من تعليم وتربية قد تُباع فى سوق الرقيق إلى سيد عظيم يعنى بها، ويمهد لها العيش الرغيد الهنىء. وجاء السيدةَ بائعُ الرقيق، فأوصته بالفتاة خيراً، وقالت له: «إن لم تجد لها شارياً كريماً فاياك أن تبيعها، وإنما عد إلىَّ بعد أيام فى ضواحى المدينة فآخذها منك، وسأكافئك على عملك». قال: «سيدتى، اطمئنى فان خديوى مصر اسماعيل باشا قد أرسل فى طلب

أربعين من الجوارى الحسان ، لأنه يريد أن يؤلف منهن فرقة للموسيقى ، تعزف له فى القصر . وقد سمعت أن فتاتك تجيد العزف على بضع آلات موسيقية ، فسيكون ثمنها غالياً ، وسيكون مصيرها إلى سراى خديوى مصر ، حيث تعيش فى نعيم القصور وعز الملوك » .

فرحت السيدة أيما فرح ، فقد أصبح يستحيل عليها أن تُتيح لفتاتها النعيم الذى أتاحته لها إلى اليوم ، وكذلك يستحيل عليها أن تراها — وهى التى تحبها كابنتها — تذوق الذل والفقر والجوع ، بعد العز والنعيم ورغد العيش .

وبيعت الفتاة وجاءت مصر ، وأصبحت ضمن فرقة موسيقى الخديوى اسماعيل . وعاشت فى القصر عيشة هنيئة سعيدة . كانت هى وبنات فرقتها كالأخوات حقاً ، يمضين اليوم كله فى هناء ، وعزفٍ على آلات الموسيقى . حتى إذا جاء وقت الطعام سواء أكان ظهراً أم عشاء ، ارتدَيْنَ ملابس معينة ، وعدَوْن إلى غرفة الطعام

الفاخرة ، يعزفن للخديوى وأضيافه أثناء تناولهم الطعام . وكان منظر هؤلاء الفتيات جميلاً حقًا ، وقد ارتدين كلهن ملابس واحدة ، كملابس الرجال من القطيفة الحمراء أو الخضراء ، مزينة بأزرار من الذهب ، وأشرطة مقصبة . كانت فرقتهن جميلة حقًا ، جميلة بأفرادها وبملابسها وبعزفها .

وكان لهؤلاء الفتيات مكانة خاصة فى القصر ، فهن أصحاب فن جئن ليُخْدَمن لا ليَخْدُمن . كانت جوارى القصر و « أغواته » يخدمونهن ويقضون لهن كل حوائجهن . وكان الخديوى الكريم يغدق عليهن المال اغداقًا . فمالٌ فى الصيف وآخر فى الشتاء للكسوة وما إليها . ثم مرتبٌ كل شهر لكل واحدة منهن ، كأنه أجر عما تقوم به من عمل .

وكانت العادة المتبعة إذ ذاك فى شراء الرقيق ، أن يسمى الشارى العبدَ أو الجاريةَ الاسم الذى يروق له ، وأن

يذكر هذا الاسم فى عقد الشراء . وسمى الخديوى الفتاة «إنجساس» ، فعُرفت بهذا الاسم ، ونسِى اسمها القديم تماما.

عاشت « إنجساس » عيشة هنيئة حقًا فى القصر ولكن الزمن لابد أن يسير ، ولابد فى سيره من تغيير وتبدلت حال خديوى مصر ، فأراد أن يتخلص من هذا الجيش العظيم من فتيات القصر ، فأخذ يزوجهن من ضباطه وحرسه واحدة إثر واحدة .

* * *

هذا ما قصته علىَّ جدتى أمس ، وهى تتم حديثها إلىَّ الليلة :

— وبين هذا الحرس حرس السراى ، كان ولدى الكبير يا ابنتى ، وكان وفيًّا لسيده ، أمينًا فى خدمته . فكان مقربًا منه محبوبًا لديه . وأراد الخديوى أن يزوجه فتاة طيبة كريمة جميلة من فتيات قصره ، فزوجه تلك الفتاة « إنجساس » .

— وجاءت « إنجساس » إلى بيتنا غريبة عنا ، بعيدة عن جوّنا كل البعد ، ولكنها فى الوقت نفسه تثبت لرائيها لأول مرة أنها جديرة بالحب والاحترام . زوجت أولادى بعد ذلك واحداً بعد واحد ، فلم أجد من أزواجهم واحدة نزلت من نفسى منزلة « إنجساس » لا بعد طول العشرة ولا قبله . احبيتها يا ابنتى ، فكان كل يوم يمر بعدُ يثبت لى أنى لم أكن مخطئة فى هذا الحب ، بل يثبت لى أنى مقصرة فيه ، فأود لو أستطيع أن أحبها أكثر مما أحببت .

— بعد عن القصر وخيره العميم الوفير ، بعد المال الذى كان فى يديها وافراً كثيراً ، بعد هذا العدد الكبير من الجوارى السود « والأغوات » كلهم يخدمونها ويقضون لها حاجاتها ؛ جاءت إلى بيت زوجها ، فاذا المال لابد فيه من اقتصاد حتى يفى بحوائج الاخوة والأم ، وإذا الخدم عدد محدود يشاركها فيهم كل من فى الدار ،

وإذا الملبس وإذا المأكل وإذا كل شيء ينقص عدده وتقل قيمته . ولكنها كانت دائمًا سعيدة ودائمًا راضية ، لم أسمعها يومًا تشكو ، ولم تشعرنى يومًا أنها تحن إلى حياة القصر .

— كانت تحب ابنى وتحترمه احترامًا عظيما ، وتقوم على خدمته ، وهى التى لم تخدم انسانًا قبل فى حياتها . عاشت فى كنف الأم أربعة أعوام ، كان لابد لها فيها من أن تُخْدَم ، وعاشت فى كنف السيدة التركية الثرية عشرة أعوام مخدومة مكرمة معززة ، فقد كانت تعامَل كأنما هى ابنة صاحبة القصر حقًا ، وعاشت فى سراى الخديوى عزيزة مكرمة مخدومة يُحرص على رضاها . وجاءت إلى بيتنا ، فاذا فقر نسبي ، وإذا واجبات تلقى على عاتقها إلقاء فتقوم بها كلها مبتسمة راضية .

— كانت يا ابنتى تحبنى حقا وتشعرنى أنى منها بمنزلة الأم . تحنو علىّ وتتفانى فى راحتى وخدمتى ، فإذا

مرضْتُ جلسَتْ بجوارى الليالى ساهرة لا تنام ولا ترضى بأن يعنى بى أحد سواها . وكان ابنى يحبها حبا جما ، ويحرص على رضاها كل الحرص ويحترمها كل الاحترام . عاشت بيننا ماعاشت معززة كريمة ، لاتقصر فى واجب نحو أحد منا ، فلا يقصر أحد فى واجب نحوها . عرفت كيف تستميل قلوبنا ، وكيف تشعرنا بأنها لا تمتاز منا إلا بأخلاقها الكريمة النبيلة . زوجت ابنى رأفت فكانت زوجه جافة شرسة الطباع ، تريد أن تفرض احترامها على كل من فى البيت ، فلا تظفر إلا بالسخرية والبغض . كان الخدم لا يحبونها ، وكان أبنائى الصغار يأنفون من أن يضحكوا معها أو يسألوها شيئاً ، أو يعاملوها أى معاملة . إلا ولدى اسماعيل فقد كان شيطاناً معها كما هو فى كل أطوار حياته ومع كل من يعرف . كان يحاول كثيراً أن يغيظها فتثور وتفور وتسب وتغضب وتتركنا جميعاً لتعتصم فى غرفتها فلا يسأل عنها أحد ، فاذا بها

تعود ثانية مغتاظة حانقة . وكان اسماعيل يغيظ زوج ابنى الكبير «إنجساس» فتغتاظ لكن فى غير ثورة ولا حمق . تغتاظ قليلا ولكنها ما تلبث أن تضحك معنا ومعه ، وما تلبث أن تحاول نصحه بألا يعود إلى ما عمل فتظفر منه بالحب والولاء ، ولا يعود إلى غيظها إلا كلما ألحت عليه غريزته إلحاحا .

— شتان بينهما يا ابنتى ، زوج ابنى رأفت و«إنجساس» كانتا منى فى منزلة واحدة من القرابة ، ولكن أين منزلة الواحدة من الثانية فى قلبى ؟ بل أين منزلتها من الأخرى فى قلب كل من فى المنزل ، سادة كانوا أم خدماً ؟ إن الأخلاق والمعاملة إن لم تؤثر شيئاً فى روابط القرابة فان أثرها فيما هو أعظم وأدوم وأهم — فى الحب — أثر عظيم .

— وماتت زوج ابنى رأفت ومات هو كما قصصت عليك ، وظلت « إنجساس » معى ومع ابنتى فى البيت بعد أن وظف ولداى الصغيران فى الجيش والادارة فتركا

العاصمة إلى حيث كانا يؤمران بالمسير فى سائر أنحاء القطر . لم يبق فى البيت إلا أنا وإلا هى وزوجها وأولادها وإلا ابنتى الوحيدة التى كانت لها بمثابة الأخت . وكانت صديقاتى كثيراً ما يزرننى فكانت ترحب بهن وتجلس معهن ، فما أسرع ما أصبحت صديقة لهن أيضاً يحببنها لحبهن إياى ، ويأنسن بمجلسها كأنسهن بمجلسى . وهى وإن كانت لا تتقن العربية أصلاً فإنها سرعان ما تعلمتها وأصبحت تتفاهم بها فى يسر ، بل سرعان ما أتقنتها كتابة وقراءة إتقاناً إن قلّ فليس يقل كثيراً عن إتقانها التركية لغتها .

— لست أقص عليك يا ابنتى ما قاسته « إنجساس » من أولادها ، فهذا تاريخ جديد تعلمينه حق العلم ، وإنما أقص عليك حديثاً قديماً عنها لتعرفى إلى أى حد وصل بها نبل الاحساس ، وإلى أى حد كانت كريمة الأخلاق قوية الاحساس بعزة نفسها وكرامتها .

— كان ابنى يعمل أحياناً فى البورصة فيضارب على الأموال والأقطان ، وكان بحكم عمله هذا كثير الاتصال بالأجانب الأغنياء من نزلاء القطر . فهذا عملهم المستحب الذى انفردوا به ، فعرفوا كيف يسيطرون على أسواق البلد التجارية ، وكيف يستنزفون أموالها استنزافا . وكانت كثرة هؤلاء من اليهود ، فهم — كما تعلمين — أهل تجارة ومال منذ وجدوا فى التاريخ . وكان هؤلاء اليهود كثيراً ما يزورونا وكثيراً ما يزورهم ، وكثيراً ما يولم لهم ويولمون له . ولأحد هؤلاء اليهود كانت ابنة شابة جميلة خليعة ، كثيرة التظرف والتقرب من الرجال ، شأن كثيرات من أمثالها . والخلاعة والتظرف هما السلاح الذى لايستطيع الرجل أن يقاومه فى حينه وإن قاومه بعد . فكان ان تسلطت على ابنى تسلطاً يبيح لها أن تقبل هداياه وما ينفق عليها من مال .

— وشاع خبر تلك الصلة فى أوساط الرجال ، فجاء

ابنى أكثرُ من صديق ونصحه بأن يبتعد عن تلك اليهودية، فاليهود قوم يسعون وراء المال فى كل آن وفى كل مكان . وصحبة هذه اليهودية لن تكلفه ما ينفق عليها من مال فحسب ، بل ستفتح عليه أبوابًا أخرى لاستنزاف المال ، لن يستطيع هو أن يسدها ، وهو الذى يعرف للأخلاق وزنًا وللعواطف قدرا .

— وكنت أسمع أخبار هذه اليهودية ، فأخفيها عن « إنجساس » اخفاء ، حتى لا تعرف فتتألم . وكان ولدى ، والحق يقال ، يُحس أنه مندفع فى تيار لا يليق به ولا بزوجه التى يحبها ويقدس مكانتها . فكان يتظرف لزوجه ، ويغدق عليها كثيراً جداً من حبه ومن احترامه ، حتى لا تحس تغيراً فى معاملته لها . كان يسرف أحيانًا فى احترامها ، وينفذ لها رغائب ما كان ينفذها لها من قبل . وكان يشعرها بحبه لها إشعاراً لم يحاوله من قبل . وكانت هى تقبل منه هذا الاحترام والحب الزائدين عما ألفت

منه بفرح ظاهر ورضى عظيم .

— وكنت أشفق عليها كثيراً حين كانت تجيئنا تلك اليهودية مدعوة مع أبيها أو أمها ، فتقابلهما استقبالاً حسناً لائقاً بمقام صديق الزوج . وكانت تودعهما كما استقبلتهما بالحفاوة والاكرام . فكنت أسر فى نفسى : آه لو عرفتِ من أمرها ما تجهلين لرددت إليها الإساءة بإساءة على الأقل .

— وكنت أخلو بولدى ، فأحاول أن أرجعه ، فكان يقول لى دائماً ، بل كان أول ما يبدأ به قوله : « أشعرت «إنجساس» بشىء ؟ » فأطمئنه ، ولكنى أعود فأحذره قائلة : إنها إن لم تشعر اليوم فستشعر غداً ، فماذا يكون موقفك منها ؟ وهنا كان يصفر وجهه ويتألم . هنا كان يعد بأنه سيقطع كل صلة تربطه بتلك اليهودية فى فرصة سانحة . هنا كان يكاد يبكى ، وهو يستحلفنى أن أخفى الأمر على « إنجساس » حتى لا تألم ، فان ألمها كان آخر ما يستطيع أن يتحمل .

— ومرت الأيام وإذا زوج يتقدم لتلك اليهودية . فينتهز ولدى هذه الفرصة ليقطع صلته بها ، فيدعوها هى وأباها وأمها إلى وليمة ، بمناسبة زواجها ليقدم لها هدية ثمينة ، هى كل ما كانت تطمع فيه تلك اليهودية من صحبته .

— وما إن جاء يوم الوليمة حتى حادثتُه فى أمر اليهودية ، ورجوته أن يعدنى أن تكون هذه آخر زياراتها لبيتنا ، وأن تكون هذه آخر مرة يتصل بها أو بأبيها أى اتصال . ووعدنى ابنى بهذا ، فكدت أبكى من الفرح ، وإذا أنا أخرج من غرفته فاذا « إنجساس » داخلة إليه تحمل ملابسه لتساعده على لبسها ، وما إن رأتنى مضطربة من فرحى حتى سألتنى : « مابك يا أماه ؟ »

— قلت : لا شىء يا ابنتى . قالت : « كلا ، إنك مضطربة وأخشى أن يكون ابنك سبب هذا الاضطراب ، أفهمينى ما بك فانا معشر النساء أليق بأن يفهم بعضنا بعضاً » . قلت مؤكدة : لاشىء يا ابنتى . قالت وكأنما قد

صعب عليها أن أكتمها شيئاً وهى التى لم تخف علىّ شيئاً قط ، بل لم تتعود منى كتماناً .

قالت : « أماه ! إن كنت تظنين أنى لا أعرف من الأمر شيئاً فأنت خاطئة » . قلت وقد أحسست أنها تقصد بالأمر نفس هذا الذى كنت أخفيه عليها : وأى أمر ؟ قالت : « أمر الفتاة اليهودية » . قلت : وما تعرفين عنها ؟ قالت : « كل شىء » . قلت وأنا أحاول آخر محاولة فى يأس لأخفى عليها الحقيقة : وهل هناك شىء مهم خاف عن هذه اليهودية ؟ ما لها ، فتاة عادية كغيرها من الفتيات اليهوديات والانجليزيات اللواتى يزرن بيتنا مع آبائهن وأمهاتهن . قالت فى تأثر عميق : « أمى ! لا تحاولى أن تخفى علىّ ما أعرف ، بدل أن تحاولى مساعدتى على احتمال ألمى المخفّ . إنى أعرف صلة زوجى بهذه اليهودية . إنى أعرف كل شىء » . قلت : ومن أدراك ؟ وكيف استطعت أن تظلى هكذا ، وكأنك جاهلة كل شىء ؟

قالت : « حفظاً لكرامتى سكتُّ وتألمت وحدى . كنت بين أمرين : إما أن أحتمل فى كتمان كما فعلت ، وإما أن أعلن معرفتى الأمر ، فان أعلنت معرفتى فلا بقاء لى ثانية واحدة بين زوجى وأولادى . لن أستطيع يا أمى أن أمكث مع زوجى يوماً واحداً والناس تعرف أنى أعرف أنه لا يحبنى أو أنه يخوننى . لا يا أمى ، إن كرامتى قبل كل شىء ، قبل نفسى ، وقبل أولادى ، إن أولادى يجب أن يكونوا كراماً فلا ينبغى أن يرضوا لأمهم إلا الكرامة . وما كنت أخفى الأمر وأتحمل فى صمت لولا أنى قدرت الأمر تماماً ووجدت أن كرامتى لا تمس فيه . كان أمامى زوجى ، رجل أحببته وأحبنى ، بل ما زال يحبنى حقاً ، ويحاول أن يسترضينى ؛ رجل لم يهنِّى يوماً بكلمة واحدة بله بعمل ، وهو يحاول بكل الوسائل أن يخفى علىَّ الأمر الذى يشعر أنه يمس كرامتى ، قلت فى نفسى لعلها غلطة ومن ذا الذى لا يغلط من بنى الانسان ؛ لعلها هفوة تورط

فيها فى ظروف قاسية ؛ لن أقف فى سبيله الذى يريد أن يصلح به هفوته . كنت أشعر بندمه منذ أول يوم اتصل بتلك اليهودية ، كنت أحس هذا الاحترام وذاك الحب اللذين لم أعهدهما منه بهذه الوفرة ، كنت أحس أنه فى أزمة نفسية وأنه يحارب نفسه من أجلى ، فلم يكن أمامى إلا أن أساعده على هذه الحرب . فتجاهلت الأمر أمام كل انسان إلا أمام نفسى . لكن تأكدى يا أماه أنى لو شعرت لحظة واحدة أنه يهينني أو أنه يحب أحداً غيرى ، أو أن حبه لى قد نقص ، تأكدى لو لاحظت عليه أى تغير فى معاملته لى ، ولو لم أشعر حقاً أنه يجاهد نفسه جهاداً شاقاً من أجلى أنا وأنه يشعر بالندم على عمله ولكن لا يمكنه لأنه ورّط نفسه أمام الناس ، لولا هذا لكان بقائى معه تحت سقف واحد مستحيلا . تأكدى أنى كنت آخذ أولادى وأهيم بهم هاربة إن لم أستطع مطلقة . كنت أفضل أن أحتمل آلام الفرقة من أبنائى

ولا أحتمل آلام الشعور بالكرامة المجروحة ، وآلام الشعور بما سيحسه أبنائى نحوى يوم يكبرون ويعرفون أن أمهم فضلت شيئاً مهما جل على كرامتها . احتملت آلام الغيرة التى تحسها كل امرأة ، والتى يحسها كل رجل يشعر أن أحداً يشاركه عواطف من يحب ، واحتملت آلام التفرد بالألم ، ومحاولات إخفاء الألم طوال سنة كاملة لا لشىء إلا لأنى كنت أشعر أن زوجى إذا ما جلس إلىَّ كان يستعطفنى بكل نظرة من نظراته وكل حركة من حركاته أن أساعده على أزمة نفسية . كان كل شىء فيه وكل شىء يأتيه كأنما يناديني : ساعدينى فانى سأتغلب على نفسى من أجلك أنت . كنت اذا قال لى إنه يحبنى حبًّا لم يحبه ولن يحبه أحداً فى حياته ، كنت إذا ما ردد هذه الجملة ، وكثيراً ما رددها فى السنة الأخيرة ، أشعر انه يكررها محاولاً أن يقنع بها نفسه هو قبل أن يقنعنى أنا .

أما اليوم وقد واتته فرصة لأن يقطع صلته بها ، فتأكدى أنى لن أسامحه بعدها إن لم يقطعها ، ولكن ثق أيضاً أنى لن أهدده بهذا ولن أعلنه بما عزمت عليه ، فأنتِ وهو أدرى بخلق .

— استمعت إليها يا ابنتى وأنا فى دنيا أخرى مما كنت أحس به من مختلف الاحساسات ، فمن عطف إلى إعجاب إلى حب إلى حنو . وأخيراً خرجت من هذه الاحساسات باحساس واحد هو أنى أستمع لسيدة نبيلة حقاً . سيدة كريمة النفس أبية تضحى فى سبيل زوجها بكل شىء إلا بكرامتها . سيدة لا كسيدات اليوم اللواتى لا يضحين فى سبيل أزواجهن إلا بكرامتهن .

— منذ ذلك اليوم يا ابنتى اختفت اليهودية من حياتنا اختفاء تاماً ، جاءت هذا اليوم إلى الوليمة وقدمت لها « إنجساس » هديتها ، أو ثمن الساعات التى تقاضت ثمنها من ابنى مرات ومرات ، ثم خرجت من بيتنا ضيفة

مودعة بالاكرام والاحترام ؛ ولم تعد منذ ذلك اليوم لا إلى بيتنا ولا إلى مجالس ابنى . اختفت من حياتنا تماماً ولم يعلم ابنى أن زوجه « إنجساس » أحست من الأمر شيئاً . سحابة مرَّت فى حياتنا كان هو أسعد منا بزوالها . سحابة خرجت منها « إنجساس » موفورة الكرامة عزيزة النفس . سحابة ما أخطرها على الحياة الزوجية ، وما أقل ما تخرج منها هذه الحياة سليمة أو كالسليمة .

— وسكتت جدتى قليلاً ثم قالت : ان ذكرْتِ « إنجساس » جدتك يا ابنتى فلا تذكريها إلا بشدة إحساسها بالكرامة وعزة النفس .

قلت : جدتى ، كنت أذكرها دائماً إلى اليوم بذكرى جميلة غير هذه ، كنت أذكرها بقصة ما زلت أسمعها من أمى منذ كنت طفلة ، فقد قالت لى أمى إنه لما اشتدت بها الآلام يوم ولادتى خرجت « إنجساس » جدتى إلى الشرفة فى مطلع الفجر ودعت ربها قائلة :

« إلهى افتد ابنتى بى ، ونجها من هذا العذاب » .

وكان أن وُلِدتُ وسُمِّيتُ اسماً اختارته لى جدتى « إنجساس » وبعد ولادتى بأربعين يوماً توفيت جدتى ، لأن دعاءها فجراً لم يخطئ ، بل أسرع طريقه نحو السماء ؟